

مذكرات أخصائية في الريف
تأليف
مديحه ابو زيد

المكتبة الثقافية

٤٩٤

مذكرات أخصائية فى الريف

بقلم

مديحة أبو زيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الاخراج الفنى : أسامة سعيد

اهـــــداء

الـــى التـــى أرضــــعتنى مـــن ثديهـــا ..

وكبـــرت علـــى شـــــاطىء نيلهـــا..

وأكلـــت مـــن تمـــر نخيلهـــا ..

تمـــردت علـــى مـــا أرق زرعهـــا ..

الـــى مصـــر

مقدمة

من منطلق البناء والتعمير فى الريف المصرى · حيث القرية فى أمس الحاجة لسواعد أبنائها القوية وعقولهم المفكرة ومن أجل تنمية المجتمع الريفى حيث توجد جذور المشاكل التى تقف حجرة عثرة فى سبيل الاصلاح الاجتماعى ولمواجهة التخلف الناتج عن الجهل والمرض والأمية · والتغلب عليه بشتى الوسائل ·

من أجل ذلك كله خرجت للعمل كاخصائية اجتماعية فى الريف المصرى وكلى طموح فى التغيير لحياة أفضل لهؤلاء الذين قهرتهم البيروقراطية العفنة والروتين الممل · تاركة وراء ظهرى مجتمع المدينة الذى يفوق كثيرا المجتمع الريفى من حيث الاصلاح والتنمية ·

فالناس فى القرية فى أمس الحاجة الى من يقودهم الى النور الذى يكشف لهم أسباب التأخر والجمود ٠ وهم فى حاجة أيضا الى من يحرك فيهم الاحساس بمشاكلهم حتى يتسنى لهم القدرة على مواجهتها ٠

فهم طاقة ضخمة صادقة وأمينة على مصالحها ولكن ينقصها شىء من التوجيه والمعرفة والامكانيات لكى تنطلق فى مسالك الاصلاح ٠

وعملية تنمية المجتمع المحلى على جانب كبير من الأهمية لا تقتصر على الجوانب السياسية والدينية والاقتصادية فقط ولكنها تهتم ايضا بالجانب الاجتماعى الذى هو مرتبط بالكل ويؤثر فيه ويتأثر به ٠

فالفلاح لايستطيع أن يفصل نشاطه الزراعى عن رفاهيته الاجتماعية ٠ فالعمل الاجتماعى فى القرية له أهميته ويجب أن تمتد مجهودات الخدمة الاجتماعية الى المجتمعات الريفية التى تحتل مساحات كبيرة من مجتمعنا المصرى ككل ٠ وتحتاج التنمية فى هذه المجتمعات الى رفع مستوى المعيشة لهؤلاء القرويين ٠ وهو واجب مشترك بين القادة الاجتماعيين وبين أهالى القرية فتحسين حالة المجتمع وحل مشاكله تقع أولا على مسئولية الاخصائيين الذين يعملون على خلق الجو الملائم لكى تنشط وتتفاعل كل القوى الاصلاحية فى المجتمع القروى واستغلال اقصى

ماتسمح به قدرات ذلك المجتمع وامكانياته فى رفع مستواه ·

وعلى الاخصائى أن يساعد فى وضع سياسة للاصلاح أيضا ويساعد فى التنسيق بين مختلف المستويات (مستوى القرية) و (مستوى المدينة) ·

وعليه أيضا ـ أى الاخصائى ـ أن يربط القرية بمختلف المستويات ويساعد أيضا فى تدعيم الهيئات الأهلية التى تخدم المجتمع ، وتشجيع المواطنين على بدء خدمات جديدة يحتاجها المجتمع · ويعمل على ازكاء الوعى الاجتماعى والانتاجى بين المواطنين عن طريق أساليب التوعية المختلفة مع الاستعانة بأجهزة الاعلام · ولذلك كله ومن أجل ماسبق أن ذكرته فكرت فى أن أسجل مذكراتى عندما عملت كاخصائية اجتماعية فى احدى القرى المصرية ، وقد سردتها فى صورة قصصية ، وكنت صادقة الى حد ما فى توضيح المعوقات التى تحول دون تحقيق الاصلاح فى المجتمع الريفى · وقد استوحيت مادتها من خلال عملى فى الوحدة الاجتماعية بقرية البليدة ، مركز العياط ، وايضا من القرى المجاورة والواقعة فى دائرة الوحدة الاجتماعية وهى (منشأة فضل ، العطف ، بهبيت) بمركز العياط · ولعلى أكون قد قدمت رؤية اجتماعية صادقة وأمينة عما يحدث من مشاكل تعوق حركة الاصلاح فى ريفنا المصرى ·

(١)

وكـر المتـاعب

وقف القطار بعد ساعة ونصف قطعهـــا ببطء من المدينة للقرية التى ساعمل بها · القيت نظرة على المحطة ثم وجهت عينى للمزارع والحقول ليس هناك من أثر لأى مبنى · فى الطريق وجدت العشرات من الفلاحين يتجهون للأرض المنتظرة سواعدهم · نظراتهم القلقـــة عمقت فى نفسى الاحساس بالغربة · تهامســـوا كعادة أهل الريف عندما يرون غريبا ···

ــ يمكن مدرسة جديدة

ــ ولا ست ضلت الطريق

سالت احدهم وكان يحمــل قفصــا مملوءا بالجرائد والمجلات :

ــ من فضلك · اين الوحدة الاجتماعية ؟

قال بلهفة وهو يركن العجلة جانبا :

ـ هل انت دكتورة جديدة ؟

ـ لا اخصائية

ـ طرف سمعان بيه ؟

ـ نعم رئيس الوحدة التى سأعمل بها

قال وهو يهم بالانصراف :

ـ أنا موزع الجرائد بالقرية ومستعد لأى طلبات

سألته قبل ان يغادر المكان :

ـ نسيت تدلنى على المبنى

أجاب وهو يشير الى مبنى قديم لا ملامح له :

ـ هذا هو وكر المتاعب

رن صدى هذه الكلمة فى نافوخى ـ وكر المتاعب ـ ماذا يقصد ؟

تسرب الخوف الى نفسى لكن لابد من التروى ٠ ألقيت نظرة على المبنى العتيق وأنا اغرس قدمى فى مساحات من التراب الذى تراكم كتلال بينما كانت هناك أكوام من السباخ الذى كان على جانبى الطريق وأحيانا فى منتصـــــفها ٠ دققت النظر فلم أجد أى أثر يدل عليه ٠ اقتربت أكثر لكن

لم اتمكن من رؤية أى شىء . اقتربت أكثر وأكثر ثم ألقيت نظرة فاحصة وبصعوبة تمكنت من قراءة بعض الحروف المتناثرة بطريقة فوضوية والتى اذا جمعت بعد جهد ففى استطاعة الانسان ان يقرأها بصعوبة . كان يكسوها ثوبا رماديا ويبدو للرائى من كثرة ما علاها من تراب أنها كتبت منذ آلاف السنين .

ضحكت بسخرية وأنا أهمس لنفسى :

ـ لاشك أنها تحفة تصلح أن توضع فى معرض والشىء الأكثر غرابة عندما وقفت فى فناء الوحدة كانت كل الأبواب مغلقة رغم أننا ما زلنا فى وقت العمل

* * *

وأمام أحدها وجدت امرأة ترتدى ثوبا يكشف عن بعض مفاتن جسدها . جلست القرفصاء تنظف أوانى الطعام بالتراب ثم تصب عليها الماء من ابريق . وعندما لمحتنى اتجهت بسرعة الى أحد الأبواب المغلقة . فتحته ثم أغلقته وراءها وما هى الا دقائق وكانت قبالتى وبصحبتها رجل بدين يبدو أنه الرئيس . فلقد توقعت ذلك من كثرة الحديث عنه فى المديرية .

عادت ذاكرتى للأمس القريب عندما كنت أنهى بعض الاجراءات الخاصة بنقلى . قال لى المدير العام لحظتها :

ـ أنت محظوظة لأنك ستعملين مع رجل طيب وذى خلق ومن عائلة كبيرة بل ومن أفضل عائلات المركز يمتلك وحده عشرة أفدنة وسيارة وأكثر من دار ومواشى وطيور وفوق ذلك يفنى حياته فى خدمة الفقراء اقترب منى الرجل . قدمته المرأة وهى تقول :

ـ سمعان بية . سيادة الرئيس ثم اختفت كلمح البرق .

اصطحبنى الى مكتبه . تلك الحجرة الواسعة جدا والتى تبدو فى حجم الفناء الخارجى والذى يتوسط كل مبانى الوحدة . بهرتنى محتوياته . ثريات مضاءة فى وضح النهار . تابلوهات ثمينة . مقاعد ومناضد ودواليب جديدة وسجاد ..

ناولته جواب نقلى وأنا شاردة . أيقظنى قائلا :

ـ أهلا بالست المشرفة .

ـ تقصد الاخصائية

لم يهمس بكلمة ثم اقترب منى وسأل ..

ـ ارفعى صوتك لأن سمعى ثقيل

قلت لنفسى بضيق :

ـ يبدو أن التعامل معه سيصبح عسيرا

* * *

لم يمهلنى حتى ألتقط أنفاسى بعد عنـــاء الطريق ٠ صحبنى فى الحال لخارج المكتب ومازلت أحمل حقيبـــة سفرى وقد بدأ الاعياء يسرى فى جسدى ٠٠

قال وهو يشير لأحد المكاتب المغلقة :

ـ هنا عمل المشرفة الاجتماعية

قلت بانفعال :

لا تلك اهانـــة

سألنى وهو يقترب منى

ـ أرجوك ٠ ارفعى صوتك

أجبته بصوت أكثر ارتفاعا :

ـ الاخصائية الاجتماعية لا المشرفة لأن هناك فرقا

هز رأسه مندهشا وهو يشير الى مكان ثان :

ـ هنا مكتب السكرتير والصراف

همست لنفسى فى دهشة :

هذا صغير ولا تزيد مساحته عن ربع مساحة مكتبه ٠

أشار لثالث :

ـ وهنا مقر مجلس القرية وبه الرئيس والموظفون وهم ضيوف فى ملكنا ومن حقنا طردهم فى أى لحظة ٠

كان هناك شاب ذو مظهر أنيق • يقف على عتبة باب هذا المكتب • ظل يتابعنا بنظراته فى كل خطوة يخطوهـا ويبدو أنه شعر بالرثاء لحالى عندما كدت أن أهوى من كثرة الاعياء ومن ثم هم بالاقتراب منا وقد امتلأت نظراته بالغيـظ •

قطعت الحديث سيدة مسنة تحمل اوراقا قائلة :

ــ سمعان بيه •

لم يلتفت اليها • اقتربت منه اكثر ونادت بصـــوت مرتفـع :

ــ يا سمعان بيه • رد على • انقطع نفســى من المشوار

نظر اليها بغيظ بينما الشاب مازال واقفـا يتأمـل ما يحدث بدهشة واشفاق •

اقترب منا قليلا وقال هامسا :

ــ لا يسمع وبالتالى لن يفعل شــيئا وربما يدعـى الطـرش •

سألته بسرور :

ــ هل تعمل هنا ؟

ــ أنا مهندس زراعى وحديث التخرج لكنى أمارس

بعض الأعمال الكتابية فى مجلس القرية مما جعلنى أشعر باليأس ٠

اجبته ببسمة أمل :

ـ وجودك معنا سيخفف من مرارة الأزمة التى بدأت فى بداية الطريق ٠

قال وهو يهم بالانصراف :

ـ اتمنى لك التوفيق والقدرة على مواجهة التحديات

قلت بنفس مطمئنة :

ـ مع السلامة يا ٠٠٠٠

قال وهو يبتسم :

ـ أحمد

* * *

اقتربت من المرأة المسنة التى لم تجد الا أن تتشاجر مع الرئيس وقد انفجرت باكية بينما هو يرمقها بنظرة كراهية توقعت أنه سمع ما طلبته وربما سيفكر فى الرد وحل المشكلة ٠

قالت بغيظ ٠٠

ـ مايعجبه يسمعه ومالا يعجبه لا يسمعه ٠

سحبت منها الأوراق ثم قلت لها وانا اربـــت على كتفها ··

أراك صباح الغد لحل مشكلتك ·

لمع بريق الأمل فى عينيها وظلت تمطرنى بســـيل من الدعوات الطيبة ثم سألتنى قبل ان تغادر المكان ·

هل أنت الرئيسة الجديدة ؟

نظر لها المدير بغيظ قائلا ··

ـ ماذا تقولين ياعجوز ؟ ارفعى صوتك ·

اقتربت منه أكثر ثم همست فى اذنه ··

ـ ورب الكعبة أنك لسامعنى ·

أشار لى وهو يقول :

ـ الأبلة اخصائية جديدة وستحل لكم كل مشاكلكم

* * *

ظل المدير يشرح لى باقى المبنى فى هذا الفناء المزدحم بالأبواب المغلقة حتى كاد التعب أن يخلع قدمى · قال وهو يشير الى باقى المكاتب ··

هذه الحجرة المغلقة كانت فى يوم ما مشغلا للفتيات ثم توقف العمل بها ومازلنا نبحث عن وســيلة لاعـادة

تشغيله ونأمل تعاونك . أما المقابلة لها والمغلقة أيضا كانت في يوم ما مصنعا للسجاد اليدوى. ثم توقف العمل به . عادت ذاكرتي للامس القريب ..

تذكرت ذلك المصنع الذى كان يعمل بجدية فى احدى القرى التى عملت بها من قبل . بدا كخلية نحل ثم فجأة بدأ يتسرب بالتدريج ليبحث لـــه عن أوكار فى الحقــول والمزارع الى أن اختفى منه تماما .

استدعيت بعض أولياء الأمور بعد ما حل الدمار به وقلت لهم :

المصنع فى حاجة الى سواعد الأبناء .

قال أحدهم بضيق :

ـ الأرض فى حاجة أيضا لسواعدهم لترويها .

لاحقه اخر :

ـ الأجر الذى يحصل عليه ابنى من عمله فى الغيط يفوق بكثير الأجر الذى يحصل عليه من مصـــنع . اننا فقراء .

قلت والأسى يعصرنى :

ـ السجاد ، الماكينات والبكر والخيـــط والخامات المتجمدة ماذا نفعل بها وما مصيرها ؟

أجابوا فى صوت واحد :

ـ تروح لأصحابها وتبعد عنا لا هى من ثوبنا ولا أحنا من ثوبها ·

* * *

قطع شرودى أصوات مشاجرة بين طفلين خرجا من باب حجرة واسعة بجوار مصنع السجاد بسبب كرة صغيرة قديمة ·

صرخ الرئيس فى وجه كليهما :

ادخل انت وهو يا ابن الـ (···)

ثم التفت لى وقال وهو يشير الى الأطفال :

ـ هنا نادى الطفل ·

اقبل احدهم وسأله :

ـ يا أستاذ ···

ـ سامى أخذ منى الكرة وضربنى ·

لم يهتم الرئيس وواصل الحديث معى :

ـ بالطبع لا اسمعه · انهم اشقياء وفى حاجة لمشرفة قوية وللعلم طلبت أكثر من مرة من المسئولين بالمديرية لكن كانت العقبة دائما شرط الحصول للمتقدمة على الثانوية

العامة علما بأنه لايوجد فى قريتنا كلها ولا فى القــرى الثلاثة الواقعة فى دائرة الوحدة فتاة او سيدة تحمل هذا المؤهل ٠٠

بل القليل منهن حصلن على الاعدادية ٠

قلت له بدهشة :

ـ اعتقد ان اى فتاة حصلت حتى على الابتدائية فى امكانها رعاية هؤلاء الاطفال بشرط التدريب والخبرة وقبل ذلك حب المهنة ٠

فجأة فتح باب النـادى واذا بى ارى فناء مليئــا بالتراب وبعض المراجيح المكسورة بينما الأطفال فى حالة من الفوضى والاضطراب ٠ اصطحبنى الرئيس وأنا أكاد أسقط من الاعياء الى الخلاء حيث الحشائش والأشجار ٠

كاد الارهاق ان يقتلنى واحسست اننى أهــوى على الأرض ومن ثم ألقيت بجسدى على بعض الخضـرة لكن الرئيس كان مصرا على مواصلة السير حتى اتعرف على باقى معالم المبنى العتيق ٠ ورغم انه ادرك معاناتى الا انه ظل يشرح لى ببرود وهو يشير الى الخضرة :

ـ يوجد هنا منحلان احدهما ملك الوحدة الاجتماعية والآخر يتبع المجلس المحلى ٠ بالطبع لم اكترث بما يقول ولكنه افزعنى عندما اعتدلت فى جلستى لأستريح واسندت رأسى على حقيبتى ، وقال بصوت عال :

ـ لا تجلسى على الجرجير والفجل حتى لايفسد ٠

بعد لحظات أقبل أحد الافـــراد وكان يرتدى جلبابا وطاقية وقد امسك بيده آلة وسار فى اتجاه الخضرة ٠

قال الرئيس وهو يشير اليه :

ـ عامل الوحدة ٠ يبدو أنه سيجمع الجرجير ٠

همست لنفسى بغيظ :

اليس من الذوق تأجيـــل ذلك حتى ارتـاح من عناء الطريق ؟

وبصعوبة حاولت ان أقف وقلت له بصوت مرتفع :

ـ ارجوك ٠ اين السكن الخاص بى ؟

اقترب منى العامل وقال :

ـ اعذريه يا آبلة ٠ سمعه ثقيل ومريض بالقلب ٠

ـ لقد زاد الطين بله ٠٠ قلتها هامسة ثم واصلت بتعجب حديثى مع نفسى ٠٠

ـ ماهـــى حكاية الجرجير الذى يزرعونه فى أرض المنحل ولصالح من ؟

اخرجتنى من شرودى طفلة صـــغيرة ٠ اقتربت من سمعان بيه وقالت وهى تناوله ورقة من فئــة العشـــرة قروش :

ـ اعطينى ببريزة جرجير ٠

اضطرب الرئيس بينما شعر العامل بالخجل والخوف وقال :

ـ ارفعى صوتك يا عفريته ٠

اقتربت منه اكثر ٠

التفت لى وقال وهو يشير الى العامل :

ـ غريب مسكين ٠ فى رقبته رزمة عيال لذلك زرع جزءا من الأرض خضروات ليزيد دخله ٠ احيانا يقرأ فى المآتم والموالد والجبانات ورغم تصـــرفاته الســـيئة اعتبره (دينامو) الوحدة وذراعى اليمين ٠

لم أعد استوعب ما يقول من شدة الألم ومن ثم صرخت فى وجهه قائلة : ٠

ـ أين مفاتيح الاستراحة ؟

سأل العامل ، وقد احسست انه ســـمع ما قلت لكن ينقصنى الدليل :

ـ ماذا تريد يا زفت ؟

ـ ترغب فى الراحة ياسعادة البيه بعد عذاب السفر ٠

ـ طبعا الست ليلى ضيفة فى بلدنا ولابد أن نوفر لها كل ما ترغب ٠ المفتاح يا غريب مع مقصوف الرقبة الرجل

العجوز على ، غادر غريب المكان ثم عاد بعد قليل بصحبة العامل الثانى الذى كان راكبا دراجة ومعه رزمة من الأوراق والدوسيهات ، قال للرئيس :

ـ بوسطة المديرية يابيه ٠

انفعل الرئيس بالغضب وصاح فى وجهه :

ـ أين مفتاح الاستراحة ياغبى ؟ الست فى حاجة للراحة ٠

هرول الرجل الذى تبدو الطيبة فى ملامح وجهه الى مكتب الرئيس الذى رمقه بغيظ ثم عاد فى لمح البرق وهو يقول :

ـ المفاتيح كانت فى مكتبك يابيه ٠ فى نفس المكان الذى تعودت أن تحفظها فيه ٠ لم يهمس المدير بكلمة بل راح يسرع خطواته الى مكتبه بينما غريب توجه الى أرض المنحل ٠

* * *

حمل العامل حقيبتى ثم اصطحبنى الى السكن ٠ قال اثناء سيرنا ببطء نحو سلم الاستراحة :

ـ لعل وجودك ياست ليلى يكون بداية خير وتساعدينا فى حل مشاكل كثيرة ـ معظم الناس هنا فقراء لكن هذا الذى يدعى أنه اطرش ينكر ذلك ٠

سألته بلهفة :

ــ هل يدعى فعلا ؟

ــ نعم ياست هانم يسمع ما يعجبه ولا يســـمع مالا يعجبه ٠

سألته وأنا اتمايل على السلم وأكاد أهوى ٠

ــ أغثنى بالسكن ٠

قال وهو يفتح باب الاستراحة :

ــ يوجد شقتان فى نفس المبنى احداهمــا شـــتوية والأخرى صيفية ويستعملهما الرئيس فقط ولا احد يجرؤ على الاقتراب من عتبة باب كلا منهما سوى عامل خصوصى وهما مزوداتان باحسن الاثاث حتى التلفزيون الملون يوجد فى كل شقة ٠

ــ أما الشقة التى ستزتاحين فيها خاصة بالمغتربات اللواتى يأتين للعمل بالوحدة ٠

القيت بجسدى المنهك على مقعد قديم فى الصالة ٠ وتاملت محتوياتها علنى اجد ما يبعث على الراحة لكن مع الأسف الأسرة قديمة ربما قدم هذا المبنى والفرش غير نظيف وقد علاه التراب ٠ هناك بعض المناضد الخشبية التى

تشبه بنوك ورش النجارة أما المطبخ فقد ازدحم ببعض الأدوات القديمة والأوانى غير الصالحة للاستعمال ٠ سألت العامل بكدر وكان يتأهب لمغادرة المكان :

ـ هل سيتغير هذ الوضع ؟

أجاب بشىء من المرارة :

ـ ربما ياست هانم مع ميزانية العام الجديد واذا وافق المدير ٠

تعجبت ٠ أى بعد سبعة شهور ـ شردت قليلا ـ هنا يوجد ثلاث شقق تكاد تكون خالية تماما لأن الرئيس لايستعملها سوى أيام قليلة فى الأسبوع فله سكنه الخاص فى بيت العائلة ٠ هنا يتوفر السكن وينعدم فى القاهرة والمسافة بين هذه القرية والعاصمة لا تزيد عن الساعة لو قطعها القطار بسرعة ٠

لماذا يتمسك الناس بالحياة فى المدينة رغم الضوضاء والزحام والغلاء ومتاعب أخرى ٠

لماذا لا يخرجون للريف حيث الهدوء وجمال الطبيعة ووفرة السكن والغذاء أيضا ؟

قطع شرودى العامل وسألنى وهو يغادر الاستراحة ٠

ــ اى خدمة ياست هانم

ــ اشكرك ٠

ــ ربنا يجعل الخير على قدومك ٠

تذكرت اننى نسيت شيئا هاما يفوق رغبتى الملحة للراحة من حيث القيمة وكان وقت العمل على وشك الانتهاء وربما سيوصلنى للحقيقة الغامضة ٠ وفى طريقى لمكتب المدير التقيت بعم على الذى سألنى بدهشة :

ــ هل تبحثين عن شىء ؟

أجبته بلهجة سريعة وأنا اسرع الخطى ٠

ــ نسيت أن أبلغ الرئيس رسالة هامة ٠

كان يستعد لمغادرة المكتب بينما وقفت عربته شامخة وقد سدت باب الوحدة وابتلعت مساحة كبيرة من فنائها بينما ساعيه الخصوصى فى انتظاره وقد انتهى من نظافتها ٠ تسرب الاطمئنان الى نفسى عندما لمحته ، وبسرعة البرق قلت له بينما كان مشغولا بالبحث عن بعض الأشياء :

ــ مدير عام المديرية ٠٠ مصطفى بيه يبلغك السلام ويرغب فى سماع صوتك ولو بالتليفون لشىء هام ٠

انتفض واقفا وبسرعة · نافشا ريشه كديك رومى معلنا انتشاءه وتسربت السعادة الى نفســـه ورد على الفـور وبتلقائية :

ـ أهلا وسهلا نورت الوحدة والبلد ياست الكل ·
لكن ما لبث ان استيقظ وتلعثم لسانه واصابه ذعر · وقفت مذهولة ثم قلت له قبل عودتى :

ـ ازى صحة سعادة البيه المدير وخاصـــة سمعــه الثقيل ·

(٢)

من المســئول

استدعانى الرئيس صباح اليوم التالى لاستلا.
وقال بارتباك :

ــ ستعملين فى مجال أسر المجندين ·

عصرت ذهنى لأتذكر طبيعة هذا العمل ·· ب
العميل المجند أو من يعوله بطلب مساعدة تصـــر
شهريا طوال فترة التجنيد ·

عدت لمكتبى بعد استلام رزمة من الدوسيهات و
الخاصة بالمجندين لأجد عشرات المستفيدين يجلس
جهات متفرقة من فناء المبنى وقد تكدسوا أمام ا.
البعض غرق فى تفكير عميق والآخر اندمج فى
وحكايات · دهشت لهذا الكم الهائل من البشر
ما الذى جاء بهم فى هذا الصباح الباكر · ربما ،
دافع قـــوى ·

ـ ماذا يريدون ؟

صاحت سيدة ترضع طفلها :

ـ وحياتك يا أبله تركت الطحين فى الماكينة وحضرت لرابع مرة لكن لا فائدة ٠

قالت الثانية وهى مسنة كانت تتنفس بصعوبة :

ـ يا ابنتى أنا من سن جدتك ومريضة بالصدر جئت عشرات المرات ٠ على أمل صرف المساعدة يئست وأمرى لله ٠

شد انتباهى رجل يتوكأ على عصاه ٠

قال بصوت ضعيف :

ـ العاهة عجزتنى ٠ أين الرحمة يا مؤمنين ؟

اقتربت منهم أكثر وقلت بأسى :

ـ أعلم انكم جئتم جميعا وبدون فائده لكن ما السبب ؟

قالوا بصوت واضح كاد أن يهز جدران هذا المبنى القديـــم :

ـ ربنا يسعدك يا ســـت ٠٠

لاحقتهم قائلة :

ـ اسمى ليلـى ٠

واصلوا بمرارة :

ـ ربنا يعمر بيتك ياست الكل تصرفى لنا معاشنـ
الشهر · باق ايام قليلة وينتهى ·

ـ فعلا ـ اليوم العشرين منه والمفروض أن تصـ
المساعدات فى اول كل شهر وعلى الاكثر من واحـــ
خمسة · قطع الحديث صوت المهندس أحمد الذى تـ
كالنسمة الى أذنى وأحسست أننى لست وحدى وسـ
هذه الدوامـــة ·

قال بهدوء وهو يقترب منى :

ـ سمعت مشاكل لا حصر لها وسأطلعك على ·
من الحقيقة وأتمنى أن اكون مخلصا غيورا ·

هزتنى الكلمة الأخيرة وصمت لحظات ··

ـ أشرح لى على الفور · أرجوك

ـ المسئول عن معاناة هؤلاء الذين يأتون بالعـ
وينتظرون بالساعات على أحر من الجمر للحصول
القوت الضرورى والذى لا ينالونه الا بعد فرقعة مرارتـ
مندوب الصرف بالوحدة ·

سألت بدهشة :

ـ كيف يحدث هذا ؟

ـ هذا السكرتير يقيـم بالقاهـــرة ويعمل بأحـ
الشركات فى الفترة المسائية ولا يأتى سوى مـــر
أســـبوع ·

قطع الحوار صوت الكاتب الذى كان يصرخ فى وجوه المنتظرين :

ـ كل ست وكل رجل يحترم نفسه ويعود لداره • وعلى رأى المثل ••

لاحقه الرجل ذو العاهه وقال :

ـ من خرج من داره قل مقداره •

صاح الكل فى صوت واحـــد :

ـ عارفين وحافظين لكنها دارنا ياباشكاتب ولا نموت من الجوع •

قال أحمد وهو ينظر لى بمرارة ••

ـ هكذا يعامـل هؤلاء كل مـــرة بهذا الأســلوب بلا رحمة •

صرخت فى وجه الكاتب :

ـ قبل أن تأمرهم بالانصراف ينبغى أن يعرفوا مواعيد الصـرف •

ألقى بجسده على أحد المقـــاعد ، وقال ببرود وهو يشير على لافتة معلقة على الحائط :

ـ ينظرون الى هذه • مدون بها المواعيد الحقيقيـــة للصرف •

أجبته بغيظ :

لاملامح لها · فقد غطى التراب معظم حروف الكـلام بها بل ومسحت معظمها لأنهـا قديمة ربمـــا من قدم هذا المبنى ·

اقترب المهندس منا وقال :

ـ انا مستعد لكتابة أخرى وبخط واضح بشـــرط معرفة المواعيد الحقيقية لا المضللة ·

انفعل شريف (الكاتب) بالغضب وقال لأحمد :

ـ من فضلك لاتدخل فيما لا يعنيك · نسيت ان رئيس الوحدة حذرك من التدخل فى شئونها · ولا نسيت المثـل الذى يقول ·· ياداخل بين البصلة وقشرتها ·····

صحت فى وجه الكاتب بانفعال وضيق :

ـ المهندس على حق والمفـــروض أن ترحب بكل من يتعاون لمصلحة العمل · ثم أن المواعيد غير واضحة بالفعل ولا يعلمها سوى المندوب الذى يحددها وفقا للمواعيد التى تناســـبه ·

عاد الكاتب لمكتبه بينما انصرف أحمد لانجاز بعض أعماله فى المجلس المحلى ·

(٣)

معونـة الشـتاء

ظلت مشاكل المستفيدين تؤرقنى وتشغل معظم تفكيرى . لكن كيف أتصرف وقد طمست الرؤية الضبابية ما بقـى من أمل وعندما لم أجد حلا جذريا فكرت فى صرف معونة شتاء لهم ورغم أنها مبلغا ضئيلا من المال يصرف دفعـة واحدة الا أنها ربما ستترك أثرا فى نفوسهم حتى ولو تكفى القوت الضرورى فربما تزيح بعض ظـلال الحـزن التى أخفت الضوء عن عيونهم .

بحثت عن الاستمارات الخاصـة بمعونة الشـتاء لتوزيعها عليهم فى أكثر من مكان بالوحدة فلم أجد . سألت الرئيس عن كيفية الحصول عليها او ربما أجد بعضها فى حوزته فقال وقد كشر عن انيابه ..

لاتجهدى نفسك . هؤلاء يتظاهرون أمامـك بالفقـر

والحقيقة أن كل فلاح يعمل بالزراعة بأجر والفلاحة أحيانا تزرع أو تقتات من تربية الطيور وقد تشرى من بيعها فى السوق والغريب أن دخل كل منهم يفوق ما يحصل عليه أى موظف هنا ٠

سألته بغيظ :

هل يعمل ذو العاهة أم السيدة المسنة أم الأرملة ذات الأطفال ٠ لقد لمست حالهم وأدركت تماما انهم فى أمس الحاجة للمساعدة ٠

أجاب بحرج :

ـ على أية حال فى امكانى منحك خطابا للجنة معونة الشتاء بالمدينة فربما تجدين بعضها هناك ٠

ـ هل يوجد من يحضرها لأننى لا استطيع مغادرة الوحدة نظرا لضغط العمل ٠

ـ لا اعتقد نظرا لعدم وجود ميزانية للانتقال ٠

فكرت فى الحصول عليها عن طريق البريد لكنى خشيت ضياعها فى الطريق أو تأخرها بفعل الروتين الممل كان منظر هؤلاء وأنا عائدة لمكتبى يثير فى نفسى الأسى ٠ هؤلاء الذين يتوافدون كل يوم ويمكثون بالساعات جلوسا على التراب أو هناك حيث سكة القطار فى انتظار الغائب الذى سيعود ذلك المندوب الممل والأمر من ذلك كانوا يأتون حفاة والدموع قد تحجرت فى عيونهم ٠ كل

ذلك حرك فى نفسى الرغبة الملحة فى أن أفعل شيئا من أجلهم . وقررت بالفعل أن أذهب بنفسى الى مقر اللجنة الفرعية لمعونة الشتاء هذا الصباح والعودة قبل نهاية وقت العمل .

وبينما أغادر باب الوحدة اذا بى وجهـا لوجـه بالمهندس أحمد الذى لفت انتباهى لما يحدث على الطريق الزراعى وعلى بعد خطوات قليلة من المبنى العتيق .

* * *

كان غريب دينامو الوحدة ـ كما كان يسميه الرئيس ـ مرتبكا وبصحبته بعض المستفيدين . يعطى كل منهم ورقة مقابل مبلغا من المال . تسرب الشك الى نفسى واقتربت منه بسرعة . لحق بى أحمد ، سألته بذهول عما يحدث فأجاب بقلق وضيق :

ـ هذا العامل يقف دائما فى وقت مبكر ويبيـع استمارات معونة الشتاء للمستفيدين بأضـعاف ثمنهـا الأصلى أى أربعة أو خمس مرات على الأقل .

يعنى هذا أن الاستمارة التى ثمنها خمسـة قروش يبيعها بخمسة وعشرين قرشا . من أين يدفع هؤلاء .

ان البعض منهم يأتى سيرا على الأقـدام لأنهـم لا يملكون أجر (التايوتا) لكن كيف الخلاص .

قطع أحمد حديثى مع نفسى قائلا :

ـ أتوقع أن الخلاص سيأتى على يديك وستحل معظم هذه المشاكل بفضل قلبك الطيب وحرصك على مصلحة العمل · لقد كدت ان أفقد الأمل فى أى شىء لكن السماء ارادت أن تمطرنا بما يغسل الألم وينقى الضمير مما علاه من تراب ·

ـ لا استطيع وحدى فالتغيير للأفضل فى حاجة دائما ليد الجماعة القوية وخصوصا اذا كنا نأمل فى التغيير الجذرى ·

ـ سنظل معك بقلوبنا وفكرنا وسواعدنا · وأنا شخصيا على أتم استعداد للعطاء بكل ما أملك ·

لكن كيف يحدث هذا فى وضح النهار ؟ ·

أجاب المهندس بمرارة :

ـ الكل هنا يعرف جيدا كل صغيرة وكبيرة ولا أحد يجرؤ على الكلام ··

* * *

حاول غريب الهروب عندما استدعيته بحجة قضاء بعض حاجيات الوحدة لكننى حاولت أكثر من مرة حتى حضر مع بعض المستفيدين المخدوعين وبمواجهة غريب

بما ارتكب من جرائم فى حق العمل • حاول الانكــــار فى البداية ، ثم قال بعد جدل وبخوف :

ـ الحاجة تبرر الوسيلة يا ست ليلى •

اجبته بغضب وانفعال :

هل تجرؤ على الكلام بهذه اللهجة ؟! ان ماتفعله كاف لفصلك •

قال بخبث وخضوع :

ـ كما ترغبين ياست هانم • ابنائى وحرمنا امانة فى رقبة سيادتك • ولا تنسى اننى انفق الكثير من مــــالى وجهدى للحصول على هذه الأوراق وان المبالغ التى اجمعها لاتغطى حتى نفقات التكلفة •

تذكرت على الفور كلام الرئيس •• (لا يوجد من يقوم بهذه المهمة لعدم وجود بدل سفر) •

لكن هذا لايبرر فعلته اللا انسانية فهناك عشــــرات الطرق للكسب المشروع •

سألت احد المستفيدين وكان قد اخفى الاستمارة فى جيبه السحرى لجلبابه والذى يطلق عليه (السيالة :

ـ هل يبيع لك غريب الاســـتمارة بأضـعاف الثمن الأصــلى ؟

حاول الانكار فى بداية الأمر وعندما اعدت السؤال مرات وحذرته من الكذب وأن هناك عقابا ينتظره اذا ضلل الحقيقة ، قال بخوف :

ـ نحن فقراء ولاحول لنا ولاقوة والاعتراف ليس فى صالحنا وسيحرمنا من قوت أولادنا الذى نحصل عليه بطلوع الروح ·

ـ أنا المسئولة من الآن عن هذه المساعدات ولن تخرج من مكتبى اية استمارة الا للضرورة ولمن يستحقها بالفعل ·

سألنى مستفيد آخر بِبسمة أمل :

ـ هل انت الرئيسة الجديدة ؟

ـ فى امكانك أن تعتبرنى كذلك ·

قال المستفيدون فى صوت واحد :

ـ نتمنى ياست هانم ان تمسكى الوحدة وتخلصينا من الظلم ·

كان أحمد مازال يقف بجوارى ويتأمل فى صمت بينما رحت أهمس لنفسى ··

ـ انها فعلا فى أمس الحاجة للتغيير الجذرى لكن هل فى امكان الحق والخير أن يسودا · لا شك أن عمرهما

قصير الا اذا اصبح هناك صوت قوى نابع من ضمير وروح الجماعة ومن روح تلك الأرض الطيبة التى لا يعرف زرعها ولا طميها ولا نهرها الشر • ولا أشجارها المخضرة وطيورها المغردة التى أستيقظ على صوتها كل صباح • تلك الأرض لا تعرف سوى الحق والخير والجمال •

أخرجنى أحمد من شرودى قائلا :

ـ أنا هنا ستجدينى دائما المرآة التى ترين فيها بعينيك كل ما يخفيه ارباب الشرويدنا فى يدك لنروى البذور وحتى تنبت وتطرح ثمارا ناضجة •

ـ هل أصبحت شاعرا ؟

ـ عندما رأيتك تفجرت بأعماقى ينابيع فياضة فهل لك من رعايتها حتى لا تجف •

ـ الله يرعانا جميعا •

سحبت من غريب ما بقى معه من استمارات ونقود وأعدت بعضها لأصحابها بقدر استطاعتى ثم حذرته من العودة لمثل هذه التصرفات التى قد تؤدى به الى الهلاك والا سأضطر آسفة للتحقيق معه مع بعض المسئولين • اقترب منى وهم بتقبيل يدى وقال وهو يبكى :

ـ أشكرك ياست ليلى لكن أكل العيش مر •

ـ الأمر منه مص دم الفقراء •

كان عدد الاستمارات التى حصلت عليها من غريب أقل بكثير من عـــدد المستفيدين الذين فى آمس الحاجـة للمساعدة الفورية وقد انتشروا أمام مكتبى بمجرد سماع نبأ ورود استمارات :

سألنى المهندس بدهشة :

ــ ماذا ستفعلين بهذا العدد القليل ؟

ــ سأحل بعض المشاكل الملحـــة واختـــار الأكثر احتياجا من المســـتفيدين وفى نفـــس الوقت سأفكر فى زياره لمقر اللجنة ٠

ــ هل تقبلين أن أقوم بهذه المهمة ؟

ــ اشكرك فالخطاب الذى حرره الرئيس باســـمى ولا داعى للحرج ٠

استأذن أحمد بالانصراف بعدما استدعاه رئيس المجلس المحلى ٠ بينما رحت أواصل الاجابــة عن اســـتفسارات المستفيدين الذين التفوا حولى بالعشرات ٠ كل يطلب بحثا مستعجلا ــ حاولت اقناعهم بأن ما معى من اســـتمارات قليل ولا يكفى سوى الحالات الملحة جدا ٠ سدت أصواتهم اذانى واصابتى بحالة من التوتر ــ أخرجنى من قســوة هذا الزحام بعض عمال الوحدة وهم يحملون لفائف سميكة من الورق قد أحضروها من سكن الوحـــدة الاجتماعية الخاص بالرئيس ثم راحوا يلقونها فى عربته الخاصة ٠

سألت العامل على الذى كان يقف بجوارى ويتأمـــل مثلى مايدور فى دهشة :

ـ ما هذا الذى يحدث ولا نعلم عنه شيئا ؟

ـ معونة شتاء عينية وهى بقايا الملابس التى كانت بالمخزن منذ فترة طويلة وقد آن الاوان لتخرج لمصيرهـــا

ـ الى أين سيذهبون بها ؟

ـ لأصحاب نصيبها ٠ تلك أوامر سمعان بيه ٠

ـ اعتقد انها ينبغى ان توزع على الفقراء الذين هم أحق بها من غيرهم وبعضهم أمامى الآن والاخصائية هى الوحيدة والقادرة على بحث احوالهم وتقدير من له الحق فيها ٠

تذكرت الأرملة الشابة التى زارتنى فى المكتب منـــذ أيام وكانت تحمل طفلا يرتدى ملابس رثة فى عز الشـــتاء سألتنى والحزن فى عينيها ٠

ـ والنبى ياست هانم يا أميرة أنا محتاجة جلابية لابنى الرضيع ؟

قطع حديثى مع نفسى العامل الطيب سيد وقال :

ـ لا تتعبى نفسك يا ست ليلى ٠ الأمور هنا تسير على هذا المنوال منذ سنين طويلة أى من بداية سيطرة الرئيس ٠

(٤)

منـــدوب الصـــرف

ظلت تؤرقنى حالات المستفيدين الملحة ومن ثم كرست جهدى فى الأبحاث الخاصة بهم لصرف معونة الشتاء مع مراعاة الأولوية فى المساعدة لمن هم فى أمس الحاجة لها ٠ وعندما انتهيت من ملء الاستمارات لم يبق سوى ســـجل تبادل المعلومات لمعرفة ما اذا كانت المستفيدة تحصل على مبالغ من جهة اخرى ام لا وهذا يتطلب زيارة الى مقـــر السجل ٠ فكرت فى ارسالها بالبريد لكننى خشيت ضياعها أو تعطيلها دار فى ذهنى محاولة ارسالها مع المهنـدس أحمد ٠ لكنى تراجعت فربما يسبب له ذلك بعض المشاكل مع المسئولين ٠ انتابنى القلق عندما وجدت نفسى حائرة وقد سدت أمامى كل الطرق الموصلة للحل ولم يبق سوى طريق واحد وعلى أن أسلكه ومن ثم حملت الاستمارات

استعدادا للسفر · اوقفنى عم على ، وقال بينما أغادر باب الوحدة :

ـ مندوب الصرف وصل وسيغادر المكان بعد قليـــل ليلحق بالقطار الذى سيقلع فى العاشرة فاليوم مواعيد محاضراته بالمعهد ويسأل ان كنت فى حاجة اليه ·

أجبته بغيظ :

ـ مضى على وجودى بالوحدة ما يقرب من شهرين ولم أره سوى ايام قليلة وفى كل مرة يمكث ســـاعة على الأكثر أعتقد أن عمدة القرية لا ينال مثلما ينال هذا الموظف من حرية وليس ببعيد ان تكون هذه الوحدة احدى اقطاعياته دون علمى والشىء الأغـرب من الخيـــال · ان الرئيس لا يحاسبه أو يعاقبه رغم علمه بنتائج تأخيره السيئة ·

قال العامل فى أسى :

ـ الأمر لله يا ست ليلى ·

ـ اقترب الصراف فى خشوع وقال :

ـ آسف لتأخيرى · الظروف أقوى من ارادتى ·

سألته بغيظ :

ـ وهؤلاء الذين يتكدسون بالعشرات فى فناء الوحدة يوميا لصرف قوتهم الضرورى · لمـــن يلجئون ؟ انهـــم

ينتظرون كل صباح الغائب الذى يحلمون بقدومه على بساط الريح أو الفارس الهمام كعنتره لينتشلهم من الضياع ٠

أجاب باضطراب :

ــ لم أكن وحدى المسئول فعدم وصول الشيك فى المواعيد المتفق عليها هو السبب وقد استلمته اليوم فقط وسأصرفه غدا أو بعد غد وفى خلال وقت قصير سيكون كل شىء على مايرام حتى لو كلفنى ذلك زيارتهم فى البيوت وتسليم المبالغ المستحقة بنفسى ، وهذا ما أفعله فى معظم الحالات ٠

ــ هل تعلم انهم ينفقون ما يقرب من نصف مايحصلون عليه فى الانتقالات لأنهم لا يعرفون مواعيد الصرف الحقيقية ٠

قطع الحديث عم على وقال :

ــ فى امكانك الاعتماد عليه فى استعلام السجل لأنه المسئول الوحيد هنا عن انهاء كل أعمال الوحدة بالمديرية ٠ فكرت فى هذا الحل لكنى خشيت ان يغيب لفترة طويلة ويمل المستفيدون من طول الانتظار أو يرهقون ماديا وجسمانيا من كثرة التردد على الوحدة وأصبح المسئولة أمامهم ٠

قال المندوب بخبث :

ـ أنا فى خدمتك وسوف أحضر غدا أو بعد غد على الأكثر ومعى فلوس المستفيدين ·

استسلمت للأمر الواقع لأننى لم اجد بديلا لكن الخوف كان يسرى فى نفسى بالتدريج ربما من المصير المجهول وكانت يدى ترتعد وانا اسلمه الأوراق ··

* * *

الأيام تمضى وانا انتظر بفارغ الصبر · مر أسبوع بل وأكثر ولم يات الصراف بينما الرئيس يوقع له فى سجل الحضور وعندما اتمرد على مايفعله يرد فى غضب :

ـ مسكين هذا الموظف طالب بالمعهد ويكافح من اجل أن تعيش اسرته فهو عائلها الوحيد بالاضافة الى أنه يقوم بكل أعمال الوحدة الخارجية · الشىء الذى يحيرنى · تعاطف الرئيس مع المندوب والعطف عليه وعدم ايذائه هل هذا من باب الاشفاق عليه نظرا لظروفه الغير عادية أم هناك أسباب أخرى ·

تذكرت حكاية الأرملة التى جاءتنى ذات صباح واشتكت بأنها لم تصرف معاشها بالكامل هذا الشهر فلقد خصم منها الصراف ربع المعاش اثناء زيارته لدارها بينما كانت مريضة وعندما سألته عن سبب الخصم رغم انها وقعت على صرف المبلغ كله ، قال لها بعنف :

ـ الا تقدرين المشوار الصعب الذى أقطعه من الوحدة لدارك والمصاريف التى اتحملها · قالت له والدموع فى عينيها :

ـ يا ابنى المساعدة قليلة ـ سبعة جنيهات ـ وأنا ارملة ومسنة مثل جدتك ومريضة ·

اجابها بغضب وهو يغادر الدار ·· (لماذا تنكرون الخير ولا تحمدون الخالق) ·

بالطبع الرئيس يعلم هذا جيدا لكن هل يساومه · لا اعتقد لأنه ليس بحاجة لمثل هذه المبالغ الضئيلة ربما يشفق عليه ·

ظل المستفيدون يتوافدون على مكتبى بالعشرات طوال ايام غياب المندوب معتقدين أننى قد احضرت الفلوس · يسألون ويلحون حتى اصرف لهم من الخزينة · ولم أجد الا ان الزم الصمت لأننى لم أجد اجابة مقنعة تبرر التأخير ·

مر ما يقرب من اسبوعين على غياب الصراف ولاحس ولا خبر عنه لدرجة أننى فكرت فى زيارة لمركز الاستعلامات الخاصة بسجل تبادل المعلومات لأننى أصبحت مسئولة أمام المستفيدين وفوق ذلك حاجتهم الملحة والتى كانت دائما تشعرنى بالذنب وقررت بالفعل التنفيذ خلال يومين على الأكثر وحتى أنهى بعض الأعمال المستعجلة ·

وفى صباح اليوم الذى عزمت السفر جاءنى عـــم على وقال بسرور :

ـ المندوب وصل ياست ليلى وفى امكانك رؤيته من شباك المكتب المطل على الطريق الزراعى ٠

خفت حدة القلق فى نفسى وعاد الدم يســـرى فى عروقى لكننى كنت أشعر بالخوف ٠ وفى لمح البرق اسرعت نحو النافذة وتأملت بعمق هذا المشهد الغريب من خلال تلك الفتحة التى كانت تكشف بوضوح ما يدور على سكة القطار ٠٠

وقف الصراف وهو يحمل حقيبته (السمسونايت) بين عشرات المستفيدين الذين التفوا حوله من كل الاتجاهات وبمجرد مغادرته القطار ٠ كانوا ينتظرونه منذ الصباح الباكر وربما من أذان الفجر ٠ كادت الدهشة أن تعيينى بحالة من الغيبوبة ٠ فلا شك أن أحد أعضاء مجلس الشعب لن يحظى بمثل هذه الجماهيرية ٠

وهم مضطرون لذلك فالحاجة تولد الشعور ٠

تنفست بارتياح عندما لمحت لفافه من الورق فى يده وانتظرت حتى اقترب من باب الوحدة وبسرعة جريت نحوه فى لهفه وسألته على الفور :

ـ اعتقد أنك قمت بالواجب مشكورا ٠

فتح اللفافة بيد ترتعد ارتعد معها قلبى وقال ببرود :

ـ آسف يا أبلة سقطت الأوراق منى سهوا اثناء سقوط المطـر ٠

جمدتنى الدهشة وكدت آن ابصق فى وجهه وخاصة عندما اكتشفت أن مجهود أيام مضنية ملطخا بالطين وقد تسرب اليها جميعا بحيث لم تعد ولا استمارة تصلح للاستعمال ٠

صرخت فى وجهه :

ـ انا المسئولة لأننى سلمت أصحاب المصلحة من الفقراء لموظف غير امين ٠

أجاب فى خضوع وقد نكس راسه :

ـ شىء خارج عن ارادتى وليس فى امكانى اصلاح ما افسده الطقس ٠

قلت له فى غيظ :

ـ ماذا كنت ستفعل لو ان كشوف الماهيات أصبح لها نفس المصير ؟

رد بوقاحة :

ـ هل تقصدين أننى تعمدت ذلك ؟

ـ بالطبع أشك فى ذلك ٠

قال بلا مبالاه وفى ثقة :

ـ انك تبذلين جهدا شاقا من أجل الحصـــول على ملاليم يأخذها المستفيد بعد أن يكون قد أنفق أضعافها ٠

أجبته بنفس اللهجة :

ـ لابد أن يشعر الفقير أننا نفعل من أجله شيئا ثم من أدراك أنها ملاليم ٠

ـ أنا متخصص فى تحرير استمارات معونة الشتاء والمساعدات ٠

ـ ليست غلطتك والمسئول عن هذه المهزلـــة هـــم ٠ هؤلاء الذين حملوك مسئولية لست أهلا لها وذلك لتعبث بقوت الفقراء ٠

كشر عن أنيابه وغلى الدم فى عروقه واقترب منـــى وكأنما يهم بضربى لكنه تمكن من ضبط انفعالاته ٠ وتراجع فى غيظ وهو يقول :

ـ أنا فى أجازة مرضية من الغد ٠

(٥)

الاجتمـــاع

ذات صباح بينما كنت مشغولة ببعض الأبحاث قال لى رئيس المجلس ..

ـ لا تنسى اجتماع اللجنة التنفيذية للمجلس ظهـر اليـوم .

سألته بشغف ..

ـ اعطينى فكرة عنه .

ـ تعقد تلك الجلسة لدراسة مشاكل الفلاحين ووضع الحلول المناسبة واعتقد ان وجودك هام لأنك الاخصائية الوحيدة فى المبنى كله .

قلت له وأنا اجمع بعـــض الأوراق المتناثـرة على المكتب :

ـ هل يعقد بصفة دورية ؟ وأين ؟ ومن الذى سيشارك فيـــه ؟

ـ يعقد الاجتماع بمعدل مرة كل أسبوع ويشـــارك بالرأى مندوبون عن الأجهزة الحيوية بالقريـــة ٠ رئيس المجلس المحلى ، أحد اعضاء المجلس عن كل قرية تابعـــة للوحدة الاجتماعية ثم رئيس الجمعية الزراعية وطبيب الوحدة الصحية ، ورئيس بنك القرية ثم ممثـــل الوحدة الاجتماعية وعادة يشارك الرئيس سمعان ثم مسئول تنظيم الأسرة ورئيس جمعية تنمية المجتمع المحلى والعمدة ٠

ـ ما قيمة وجودى اذا كان رئيس الوحدة يشـــارك ويكفى ممثل واحد عن الجهاز ٠

رد على الفور وبحماس قبل ان يغادر المكتب :

ـ نحن فى امس الحاجة لوجود العنصر النســائى وثقتى فيك كبيرة ٠ فلقد لمست فيك الحماس للعمل ورعاية مصالح المستفيدين بأمانة وحب الخير للناس ٠ والرغبة فى العطاء لاقصى الحدود وآمل الا تتخلفى ٠

حان ميعاد الاجتماع ٠ وضعت منضدة قديمة فى فناء الوحدة وبعض المقاعد التى احضرها العمال من مخـــزن الكهن الخاص بالوحدة الاجتماعية ويقال أنه كان فى يوم ما مسرحا للفلاحين تعرض عليه بعض المسرحيات الهادفة والتى يشاهدها المئات من المتفرجين ٠

ظل الاعضاء يتوافدون الواحد تلو الآخر ، لكن عددهم كان أقل بكثير من هؤلاء الذين حدثنى عنهم الرئيس فى بداية الاجتماع قدمنى رئيس المجلس قائلا :

ـ الأستاذة ليلى الاخصائية بالوحدة الاجتماعية نرحب بها لأول مرة وأملنا فيها كبير ·

قال مسئول تنظيم الاسرة :

ـ فى الحقيقة اننا فى أمس الحاجة لتنشيط المشروعات الحيوية للمرأة الريفية ·

ألقى رئيس المجلس كلمة قال فيها :

ـ سبق أن أشرنا اكثر من مرة الى الموضوعات الحيوية والتى يجب ان توضع فى مرحلة التنفيذ وسبق ان نوهت الى ان المجلس يملك من المال ما يعطى اى مشروع يعود بالفائدة على الفلاحين بشرط أن يكون مشروعا انتاجيا كما سبق أن أقترح البعض فى الاجتماعات السابقة انشاء ثلاجة بطاطس · وتعد من أهم المشروعات الحيوية للقرية وخصوصا قريتنا والقرى المجاورة لها والتى تنتج محصول البطاطس بوفرة ويفيض عن الاستهلاك فلابد من وجودها لحماية المحصول من التلف ·

قطع الحديث رئيس الوحدة الاجتماعية قائلا :

ـ لا تنس مشروع تسمين العجول ·

عقب مسئول تنظيم الأسرة بقوله :

ـ هذه مشـــروعات لا باس بهـا ويا حبذا لـو شقت طريقها للنور فسوف تحل الكثير من المشكلات ٠

واصل رئيس المجلس حديثه :

ـ مثل هذه المشروعات على جانب كبير من الأهمية لكن مع الأسف تطرحونها فى كل اجتمـــاع للمناقشـــة وتخرجون بتوصيات واقتراحات لدرجة اننى أعتقد انهـا قتلت بحثا ، أما ان تاخذ طريقها للتنفيذ او يصرف النظر عنها وكنت اتوقع فى هذا اليوم أن يقدم أحدكم دراســـة مستوفاة للمشروع المقترح وكيفية تنفيذه وما على الا أن اعتمد الميزانية وذلك بعد الموافقة بالاجماع ٠٠

قال أحد الأعضاء :

ـ بالنسبة لثلاجة البطاطس اقترح أن نقيمهـــا على الطريق الزراعى لقرية البليده لأنها قريبة من العمران وبها مقر الوحدة والمجلس ٠

رد البعض بحماس :

ـ ولماذا لا يكون مقرها فى قريتنا ففيهـــا الجمعية الزراعية ونقطة البوليس وهى قرية منشأة فضل ٠ علما بأن المسافة بينها وبين البلدة قصيرة جدا ٠

عقب مندوب تنظيم الأسرة بضيق وقال :

ـ هنا ام هناك • المهم أن تستقروا على المكان وتوافونى بدراسة علمية للمشروع فى الاجتماع القادم •

بعض الأعضاء لزموا الصمت بينما البعض الآخـر انشغل بالأحاديث الجانبية مما أدى الى اشاعة الفوضى •

وكان من بينهم سمعان بيه الذى اندمج فى الكلام مع العمدة مما أدى الى شعور رئيس المجلس بالضيق ، وقال على الفور موجها كلامه لهما :

ـ نرجو المحافظة على النظام •

رد رئيس الوحدة بانفعال :

ـ حديثنا لم يخرج عن جوهر الاجتماع • كنا نواصل الكلام حول مشروع تسمين العجول •

اضاف مسئول تنظيم الأسرة :

ـ علينا اتباع الاسـلوب الديمقراطى فى الحديث وتكون المناقشة فى أى مشروع على الملأ •

أجاب سمعان بيه بينما انفعل العمدة بالغضب :

ـ بالنسبة لمشروع تسمين العجول • فلقد اتفقت مع رئيس جمعية تنمية المجتمع بالقرية • جناب العمـدة • ورئيس الجمعية الزراعية وهو غائب عن مجلسنا ولعـل

المانع يكون خيرا ووضعنا خطة تدرس حاليا وبمجـــرد الانتهاء منها وفحصها جيدا سنقدمها فى الاجتمـــــاع القادم ·

قطع الحديث رجل مسن موجها كلامه لرئيس الوحدة وقد أمسك ورقة وقال :

ـ يا بيه انهد حيلى فى مشاوير الجمعية الزراعية لختم طلب الحيازة لكن فى كل مرة يقولون ·· الرئيس فى اجتماع مهم · كان على بعد خطوات قليلة المهندس أحمد · تقدم على الفور ببدلته الأنيقة ووسامته النادرة واكمـــل وهو يتأملنى بشوق هذا الرجل العجوز جـــاء أكثر من مرة لاستكمال أوراق المساعدة وهم يعلمون جيدا وأعتقد أنه آن الاوان ليتحرر هؤلاء مما وقع عليهم من ظلم ·

قلت هامســة :

ـ لماذا لا يشاركنا أحمد فى الاجتماع فهـو شـــاب متحمس للعمل وطموح ويسعى دائما للخير لكن ليس الأمر بيدى رد رئيس الوحدة الاجتماعية على الفور بغيظ ··

ـ سبق أن نبهتك يا باشمهندس بعدم التدخل فى شئون الوحدة · فهذا ليس من اختصاصك ·

انفعل رئيس المجلس بالغضب وهم بأن يحاسب أحمد بانفعال ولكننى لاحقته قائلة :

ـ الأستاذ احمد لم يخطىء بل ما يفعلـــه هو عين الصواب فهو ينبهنا لما يحدث من تكاسل فى العمل واهمال ولاشك اننا فى أمس الحاجة لمثل هذه الروح الطيبة ٠

قال مسئول تنظيم الاسرة :

ـ نأمل مشاركته فى الاجتماعات القادمة فلاشك أنه شاب كفء وسيعطينا الكثير ٠

كان لهذا الكلام تأثير سيء على نفس سمعان بيـــه فراح يصارع غيظه بينما لزم رئيس المجلس الصمت ٠

رن جرس التليفون فى المجلس المحلى فاستأذن احمد فى الانصراف بينما سأل رئيس المجلس موجها كلامه لى ٠٠

ـ هل الاستاذة لديها اقتراحات ؟

أجبت ونظراتى ما زالت تلاحق أحمد :

ـ أعتقد ان الوحدة الاجتماعية فى حاجة ملحة لرائدة ريفية لكل قرية تابعة لها ومشغل للفتيات ومحو أميـــة ونادى ثقافى للطفل وايضا تطوير دار الحضانة الموجودة حاليا بمقر الوحدة لأنها بالشكل الحالى لا تصلح مطلقا لاستقبال الأطفال ٠ وانا على أتم استعداد لعمل التوعية الكافية من اليوم خصـــوصا لمشروع الرائدة لأن عملها حيوى وهام فعلى عاتقها التوعية للنظافة وطرق الوقايـــة

من الامراض ومحو الأمية والنادى النسائى لتعليم الفلاحات كيفية عمل الحلوى واشغال الابرة والتدبير المنزلى ٠

رد رئيس المجلس مسرورا :

هذا هو عين الصواب ٠

قطع الحديث العمدة وقال موجهــا كــلامه لرئيس المجلس :

ـ لا تنس وقت الاجتماع ٠

قال الرئيس للجميع :

ـ أفادكم الله ونرجو فى الاجتماع القادم الا تنسوا ما اتفقنا عليه ٠

(٦)

رأى المـــدير

عندما رآنى المدير وكان مشغولا فى البحث عن بعض الأوراق فى الملفات القديمة · القى بها بسرعة فى درج مكتبه وأحكم الاغلاق ثم سألنى بخوف :

ــ هل ضايقك أحد المستفيدين ولا مقصـــوف الرقبـــة غريب رفض تلبية رغباتك · هو عنيد ولكن اطمئنى سأكسر دماغـــــه ·

أجبته على الفور بدهشة :

ــ لا هذا ولا ذاك ولكن جئت لمعرفة رأيـــك حـــول المشروعات التى كلفنى بها المجلس فى الاجتماع الأخير

قال بلا مبالاة :

ــ لاتشغلى بالك وكل شىء سيتم فى الوقت المناسب ·

أجبته بانفعال :

ـ كيف وقد مضت بضعة أيام ولم يتم تنفيذ أى شىء ثم أن بعض القرويات يترددن على مكتبى بصفة دائمـــة للسؤال عن هذه المشروعات ويرغبن فى الالتحاق بالعمل فيهـــا ٠

قال بلهجة سريعة وهو يضع مفتاح الدرج فى مكتبـه وقد اطمأن بعض الشىء :

ـ بالنسبة لمشروع محو الأمية فقد أرسلنا للمديرية منذ بضعة شهور برغبتنا فى تشغيله وأرسلت مبلغا من المال وتم التشغيل لفترة وخرجنا دفعة من الفلاحين الذين حصلوا على شهادات اتمام الدورة ثم أغلق بعدما صرفنا آخر قرش كان معنا ٠ أما مشغل الفتيات فقد انفقت كـل ميزانيته فى شراء الماكينات والخامات وهى بالمخازن حاليا ولا ينقصنا سوى المدرسة والبنات للتعليم ٠ أما النادى النسائى ففى امكاننا تشغيله فى مقر المشغل وذلك فى الفترة المسائية وغالبا لا نجد من القرويات من تهتم بالمشاركة فى العمل لأن كلا منهن مشغولة باعداد العشاء لزوجها العائد من الحقل بعد تعب طول النهار ٠

أجبته بغيظ :

لكن بعض القرويات يسألن عن النادى ولديهن الرغبة فى تعلم كيفية عمل الحلوى والمربات وأشـغال الابرة ،

لا تشغلى بالك فهن قلة ومن ترغب فى ذلك اما طالبة ولديها وقت فراغ فى الاجازة او ارملة تشعر بالوحدة أو ما شابه ذلك ٠

قلت له وأنا أتأهب للانصراف :

ـ اذن على أن أكرس جهدى فى مشـــروع الرائدة الريفية ٠

رد بتحد وانفعال :

ـ يكون فى علمك انه لاتوجد أجور لأية مدرسة سواء للمشغل او النادى النسائى أو محو الأمية ٠ ثم أننـــى تفرغت لمشروع كبير سيخدم القرية كلها ووقتى لا يتســع لمباشرة مشروعات لاتعود بالنفع على أهل البلدة ٠

أجبته بسخرية :

ـ اعتقد أنه مشروع تسمين العجول ٠٠

ما رأيك ٠٠ أعتقد انه من احسن المشاريع وأهمها ٠٠

على اية حال هذا يكفى لأن سيادتك ورئيس جمعية تنمية المجتمع وحضرة العمدة فى حاجة الى الربح الوفير لكن لماذا لم تتبن أيضا مشروع ثلاجة البطـــاطس وهو حيوى وهام للفلاحين وسيخدم أكثر من قرية هذا بالاضافة

الى أنه احتل مكانة مرموقة فى اجتماعات المجلس ودارت حوله مناقشات عديدة ·

قال وهو يعتدل فى جلسته :

ـ الشركاء كثيرون ولا احب المشاكل ثـــم ان هذا المشروع من الصعب تنفيذه لعدم وجود مساحة واسعة تقام فيها الثلاجة · ثم من من اعضاء المجلس ســـيتكرم ويتبرع بقطعة ارض من أملاكه لصالح المشروع ؟

قطع الحديث غريب الذى جاء مهرولا ليقول للرئيس بلهجة سريعة ··

حضرة العمدة فى انتظار سعادتك بخصوص العجول ويذكرك بأن الغدا فى الدوار اليوم ·

انتفض الرئيس واقفا على الفور ثم أجاب بانفعال :

ـ امش بسرعة وقل له ··

ـ حالا سأكون فى الدوار ·

ثم التفت لى وواصل الحديث :

ـ فى امكانك ان تدخلى معنا كشريك فى المشروع ·

اجبته بانفعال وغضب :

ـ يكفينى مشروع الرائدة الريفية فنجاحه سيكون له تاثير بعيد المدى على الفلاحين ·

هم الرئيس بمغادرة المكتب · لحقت به وسألته :

ــ نسيت أن أسألك عن امكانيات الوحدة والجمعية لعمل الدعاية اللازمة لمشروع الرائدة لأننا فى حاجة الى ورق اعلانات وألوان وغيره ·

قال بلا مبالاة دون أن يلتفت لى :

ــ ليس لدينا امكانيات للدعاية لا فى الوحدة ولا فى الجمعية · ثم ان مثل هذه المتطلبات البسيطة فى الامكان تنفيذها بالجهود الذاتية ·

(٧)

الرائــدة الريفيــة

ادركت أنه لا ينبغى الاعتماد على أحد من المسئولين فى التوعية او انشاء مثل هذه المشروعات الحيوية كالرائدة الريفية وغيرها ولذلك لابد من الاعتماد على نفسى وبالفعل بدأت فى التوعية لمشروع الرائدة الذى سيخدم القريةكلهافى كافة المجالات ٠ فالرائدة هى حلقة الوصل بين الفلاحين وبين سائر الأجهزة الصحية والاجتماعية والسياســية والاقتصادية كما أنها تتحمل العبء الكبير فى التوعية للنظافة ومحو الأمية والنادى النسائى ومشغل الفتيــات ونادى الطفل وغيرها وتقوم أيضا بفحص المشاكل الأسرية ومحاولة حلها بمعرفة المجالس العرفية بالقرية ٠ ولذلك لابد من حسن أختيارها فهى ليست كأية ريفية بل تكـــون على درجة عالية من التعليم والوعى بما يدور حولها وتلم

بكل صغيرة وكبيرة فى البلدة التى ستمثلها وتمتلك القدرة على الحوار واقناع الناس بما يعود عليهم بالفائدة ·

أخرجنى من نهر أفكارى المهندس أحمد · كان يتجـه الى المجلس المحلى وفى يده بعض الأوراق بينما كنت أنظر الى مشغل الفتيات المغلق وقال :

ـ صباح الخير يا ليلى · اتمنى أن تكونى وفقت فى مشروعاتك ·

ـ صباح النور · فى الحقيقة كنت افكر فى كيفية تنفيذ اهمها وهو مشروع الرائدة ·

ـ لك عندى أخبار سارة بخصوص هذا المشروع ·

سألته بسرور وعلى الفور :

ـ هات ما عندك وبسرعة ··

ـ تقدمت للمجلس قروية ترغب للعمل فيه واعتقد ان لديها خبرة بفن التفصيل واشغال الأبرة ·

ـ اين هى وهل تقدمت بشكل رسمى ؟

قال وهو يناولنى بعض الأوراق :

ـ هذه تخصها ، وقد غادرت الوحدة لأنهـا كانت متعبة وكان هناك حمار فى انتظارها واعتقد ان عنوانهـا مدون هنا ·

فحصت الأوراق بدقة ثم قلت له وأنا اشعر بالأسف :

ـ لا تصلح يا أستاذ ٠

ـ كيف وهى مؤهلة واعتقد أن شروط الرائدة تتوفر لديها ٠

ـ لكن ينقصها اهمها ٠

لاحقنى قائلا :

ـ ما هـى ؟

ـ سلامة البدن فهى مسنة كماهو واضح من تاريخ ميلادها ٠ لكن على أية حال هذا يبشر بالخير لأن المشروع بدأ فى الانتشار ٠

اقترب احمد منى وقال بهدوء :

ـ فى امكانك الاعتمـــاد على فى تحمل جـــزء من المسئولية حتى لا ترهقى فصحتك تهمنى ٠

لزمت الصمت وبقيت لحظات اتأمله فى نشوى بينما واصل هو الحديث :

ـ منذ مجيئك للوحدة وانا أشعر بالأمل ٠ لقد بدأ الشروق يزحف على هذا المكان الذى كان بالأمس يئن من قسوة الظلام ٠

اجبته وأنا أحاول ضبط انفعالاتى :

ـ أرحب بتعاون الأصدقاء · فكلنا أسرة واحــــدة تسعى للخير دائما كما أتصور ·

قطع الحديث عم سيد ··

ـ الشاى يا باشمهندس ·

قلت لأحمد بينما يحتسى الشاى :

ـ فى امكانك التعاون معنا فى عمل الدعاية والتوعية للمشروع ·

قال وهو يهم بالانصراف عائدا للمجلس :

ـ اطلبى وما على الا التنفيذ من الآن ·

ثم وجه كلامه لعم على قائلا :

ـ نأمل ان تحضر لنا من المدرســـة بعض الأوراق والخامات الخاصة بالاعلانات ··

أجاب العامل بحزن :

ـ فى الامكان يابيه لكن لدينا بالوحدة وبجمعية تنمية المجتمع ميزانية للمطبوعات ·

قلت بدهشة :

ـ لكن سمعان بيه ينفى ذلك ·

تعجب عم على وقال وهو يصارع الغيظ :

ـ يوجد أشياء لا قيمة لها وينفق عليها من مال المصلحة · الى متى سيظل يكتم على أنفاسنا · ؟

اجبته بتحد :

ـ الى أن نملك القدرة على محاربته ولن نتوقف مهما كانت الصعوبات حتى لو كلفنا عمليات التوعية من مصروفنا الخاص ·

ـ وسابدأ من اليوم فى عمل زيارات للقرية رغم أنها كبيرة ومزدحمة ولا أدرى من الذى سأبدأ بزيارته أولا ·

قال عم على :

ـ العمدة ياست ليلى لأنه يعرف كل أخبار البلد واقبليني رفيق الطريق ·

ـ لا يارجل يا طيب · أنت تعبان طول النهار وفى امكانك العودة للأبناء للراحة ·

استقبلتنى زوجة العمدة بحفاوة وهى سيدة فى الخمسين من عمرها · كانت ترتدى ملابس حضرية باستثناء الطرحة التى كانت تغطى رأسها ثم سألتنى بدهشة :

ـ أنت رئيسة الوحدة الجديدة ؟

ـ أنا الاخصائية واقوم بالتوعية لمشروع الرائـدة الريفية ٠

أجابت بضيق :

ـ فى الحقيقة فقدنا الثقة فى وحدتكـــم ٠ فالوعود كثيرة والمشاريع ايضا كلها حبر على ورق وسبق أن قام بعض زميلاتك بزيارتنا منذ شهور حيث كانت هناك بذور لأعمال جليلة لكن لم يتم شىء ٠

أجبتها بابتسامة أمل :

ـ لا داعى لليأس وسنبدأ من جديد ونجاحنا يعتمد على تعاونكم ربما حدثت ظروف فيما مضى كأن تكـون المدرسة قد تزوجت أو نقلت او ما شابه ذلك ٠ فأحيانا تكون الظروف أقوى من ارادة الانسان ٠

قالت بغضب :

ـ سيظل الحال كما هو عندما تأتى أخرى ٠

لاحقتها وأنا أقاوم اليأس الذى تسرب الى نفسى ٠٠

سنختار الرائدة من القرية التى تقيم فيها حتى لا تفكر فى الاغتراب وربما نجد فيها ما يؤهلها لتصبح مدرسة مشغل أو مشرفة لروضة أطفال ٠

سألت بسخرية :

ـ والحضانة الحالية · هل سيتم تغييرها ؟

ـ عندما تأتى الميزانية الجديدة ·

واصلت الحديث بنفس اللهجة ··

ـ منذ بضعة سنوات ونفس الكلام يعاد لدرجة أنى فكرت أن أقدم لابن ابنى فى حضانة الوحدة والتى عندما قمت بزيارة مقرها اكتشفت أنها لا تصلح لاستقبال الاطفال فلا يوجد الزى الرسمى ولا لعب وان وجدت فهى مكسرة ورديئة ، كمـــا ان الدار تخلـــو من البرامج الترفيهية والرحلات ·· الخ ·

أجبتها بابتسامة حزينة :

ـ كل شىء سيتم فى الوقت المناسب وسأبذل أقصى جهد فى التغيير لتحسين مستوى الحضانة حتى تتناسب مع ميول الأطفال ورغباتهم ·

فجأة حضر رجل مسن · كان يرتدى قفطانا وعباءة وطاقية راح يخطو بخطوات بطيئة حاولت أن اتذكره ·فلقد رأيته من قبل · ربما فى اجتماع المجلس ·

قالت السيدة بوجل وهى تقترب منه وتكاد أن تنحنى :

ـ حضرة العمدة وفى امكانك الحديث معه ، كمـــا تشائين ·

ثم غادرت المكان وهى تقول له وتشير الى اخصائية جديدة بالوحدة ويبدو أنها متحمسة لمشروعات كانت ميتة منذ سنين ٠

قال بهدوء وهو يعتدل فى جلسته ويشعل سيجارة :

ـ نعم رأيتها من قبل ٠ جزاها الله كل خير ٠٠

قلت له بقلق :

ـ نرحب بتعاون سيادتكم معنا فى تنفيذ هذه المشروعات والافادة بالخبرة والمشورة ، وأولها مشروع الرائدة الريفية فأنت خير من يساعدنا فى القرية كلها ٠

اجاب بضيق :

ـ لكن يا ابنتى سبق أن قلت فى اجتماع المجلس أنه لا يوجد بالقرية اكلها من تنطبق عليها شروط الرائدة وأهمها حصولها على الاعدادية على الأقل ٠

أضافت زوجته التى عادت وفى صحبتها لا يزيد سنها عن الثالثة عشرة كانت تحمل صينية عليها أكواب من الشاى :

ـ فى امكانك الاتصال بزوجة المحضر ٠

قال العمدة فى احتجاج :

ـ ليست من أهل القرية ولقد نزحت من المدينة ..
قالت زوجة العمدة (من عاشر القوم ياحاج أربعين يوما صار منهم) .

ـ هى زوجته منذ سنوات ، ثم أنها لن تعمل بالفعل لأنها ربة بيت ومسئولة عن أطفال ولكنها ستقوم بالتوعية فقط ، وهذا لن يكلفها سوى ساعات (قليلة) من النهار .

كان اليأس قد تسلل الى نفسى لكننى حاولت أن أبدو طبيعية .

استأذنت فى الانصراف بعد ما أوشك الغروب على الرحيل وبدأت خيوط الليل تزحف لتظلل صفحة السماء .

قالت زوجة العمدة للفتاة وهى تشير الى :

ـ وصلى الأبلة ليلى يا صباح

***

غادرنا صالة الاستقبال . جذب انتباهـــى خاتـــم الخطوبة المعلق فى أصبع الفتاة . وقالت بأسى قبل أن أهمس بكلمة .

حصلت على الاعدادية وأمنيتى أن أعمل رائدة ريفية فهذا العمل سيخرجنى من أزمتى النفسية ، ولدى الشروط المطلوبة .

سألتها بلهفة :

ـ هل يضايقك أحـــد ؟

شردت قليلا ثم واصلت الحديث :

ـ من شهور عقد قرانى على ابن صديق لوالدى
كانت الدموع تسبق كلماتها · لم أعرفـــه ولم أتمكن م
التفاهم معه ·

سألتها باشفاق :

ـ لماذا قبلت اذن ؟

ـ ماذا فى امكانى أن أفعل اذا كنت لم اتزوج ا
عمى الذى أحبه منذ سنوات ولا اتصور أننى سأكون لغير
فى يوم ما ·

ـ هل تقدم لخطبتك ؟

ـ نعم طلبنى من والدى لكنه رفض بحجة أنه ماز
يدرس فى الجامعة ·

ـ هل هذا هو السبب الوحيد لرفضه ؟

ـ بالطبع لا ·

كنت على اتم استعداد لانتظاره حتى التخرج ولحظت
أكون قد وصلت للسن القانونية للـــزواج ··ذلك لو ا
النفوس صافية ·

سألتها بتعجب :

ـ نفوس من ؟

أجابت بنبرة حزن :

ـ هناك خلاف بين والدى وشقيقه بسبب الميراث ٠

قلت لها مطمئنة :

ـ لا تيأسى من رحمة الله ٠ فما زلت صغيرة وربما تحبين زوجك بعد المعاشرة ٠

ـ لا أظن ذلك ٠ فلقد مر على عقد القرآن عدة شهور ولا زلت لا أشعر نحوه بأية عاطفة ، وكـم كنت أتمنى مواصلة تعليمى ٠

ـ هل منعك أحد ؟

أجابت والدموع فى عينيها :

ـ لكى أواصل تعليمى فى مدرسة المركز الثانوية لابد أن أختلط بالشباب سواء فى القطار أو فى الاتوبيس وهذا يتنافى مع عرف العائلة ٠

همست لنفسى بدهشة :

ـ أيحدث هذا ونحن فى القرن العشـرين ٠ وفى فترة الثمانينات ، وقد زحفت المدنية والتطور على القـرية المصرية ، والمفروض أن يؤثر هذا على سـلوك الانسان وقيمه ٠ ويستوعب الحرية التى تساعده على اثبات وجوده ومقاومة الرجعية والتأخر ٠ لكنه صراع الأجيال ٠

سألتها بتعجب :

ـ كيف عقد قرانك ؟ ومازلت لم تصلى بعد السن القانونية ؟

أجابت بخوف وهى تتلفت يمينا ويسارا :

ـ لا يعتبر هذا مشكلة فى بلدنا والحل فى يد طبيب الوحدة الصحية ، فاذا رفض يذهب والد الفتاة التى سيعقد قرانها الى أى طبيب آخر ويساومه على المبلغ ٠

ـ وهل يدفع الوالد نقودا ؟

ـ نعم يدفع للطبيب من عشرة الى عشرين جنيها ، وأحيانا يقسم المبلغ بالتساوى بين المأذون والطبيب ٠

كان الطريق مازال ممتد أمامنا ، ولم نصل بعد للمحطة سبحت فى ذاكرة النفس الحائرة ٠

لاشك أن ما يحدث هنا جريمة لا ينبغى السكوت عليها لكن ما هو الحل ؟ ان الواقع فى أمس الحاجة للتغيير ولابد من وجود ثورة تصحيح لتلك الأوضاع الخاطئة وضرورة الرقابة الشديدة للحد من انتشار تلك الظواهر غير السوية والتى تصيب جسم المجتمع بالأمراض الخطيرة ان حياة الملايين منا مهددة بالمجاعة نتيجة لتفاقم المشكلة السكانية ٠ فالزواج المبكر وبالتالى الانجاب فى سن مبكرة أحد الأسباب الى تفشى هذه المشكلة وهنا فى

الريف يكمن الخطر فلماذا لا يكون فى كل قريـــة ملكتب توجيه أسرى يكون مهمته فحص حالات المتقدمين للزواج وخصوصا من ناحية السن ٠٠٠ ، ٠٠٠٠ الخ ٠

ماذا فى امكانى أن افعل الآن ؟ ازاء هذه الجريمة التى لمستها بنفسى ٠٠ هل أقوم بصفتى مسئولة بالتبليغ عن هذه الحالة ، واذا فعلت هل ستعترف الفتاة وتقــول الحقيقة واذا حدث ذلك هل تفلت من عقاب والدها وهو رجل مسئول فى القرية وله كلمته ٠ ثم أين الطبيب الذى قام بالتزوير وتقاضى الرشوة ٠ هل مازال يؤدى دوره أم أنهى خدمته ونقل لمكان آخر ٠

المسألة اذن فى حاجة ملحة ونظرة عميقة وشــاملة وحملة ضد هذا الفساد الاجتماعى المنتشر ولابد من حملة جماعية ٠

قطعت الفتاة شرودى وقالت بخوف :

ــ خذى بالك يا أبلة ليلى ٠ الجاموســة ستهجـــم عليك ٠

أفقت لأجدنى وجها لوجــه أمـــام بعض الحيوانات العائدة من الحقل ٠

واصلت الطريق بينما الفتاة عادت قبل أن يقبـــل الليل ٠

(٨)

حـــديث المســاء

عندما خيم الشفق الأحمر بدأت بعض آلامى النفسية تزول بالتدريج حيث ساد الهدوء وهبت نسمة نقية من جهة الحقول · توجهت للشرفة المطلة على منحدل الوحدة وأرضها المخضرة · فكم كان يروقنى منظر الشمس وهى تغرب وتختفى رويدا فى حضن السماء الصافية · كانت تنشر أشعتها ذات الألوان الجميلة على المزارع والحقول فتضفى على الطبيعة رونقا وبهاء · تمنيت لحظتها لو أن نفوس الناس وضمائرهم تصبح نقية وصــــافية كهذا الجمــال الالهى · دافئة يملؤها الحب والحنان · هؤلاء البسطاء الذين يعيشون فى أحضان الطبيعة الحانية والحياة المليئة بالخير · لاشك أن ذلك ينمى فى نفوسهم حب الخير ونبذ الحقد والشر · تلك النفوس التى تمتلىء بالغدر واغتصــــاب أموال الفقير ·

أخرجنى من تأملاتى طرق على الباب . القادم سيدة مسنة . قالت بخضوع :

ـ غريب موجود ؟

ـ هل أغضبك فى شىء ؟

أجابت فى صوت مخنوق :

منه الله نسانى حتى أقول . مساء الخير .

سألتها بلهفة :

ـ ماذا حدث ياخالة تكلمى ولا تخشى شيئا ؟

ـ أخذ أوراق البحث والختم ووعدنى بصرف المساعدة لكن مضت عدة أسابيع وللآن لم يسأل عنى .

قلت لها مطمئنة ودمى يغلى :

ـ أتمنى أن أراك فى الصباح وبالطبع سيكون بالوحدة وسأبذل كل جهدى لمساعدتك .

سحبت طرف طرحتها من وراء ظهرها وفكت الصرة التى به وقالت بعدما أخرجت ما بها :

ـ ذوقى بلح طعمه سكر وفطيرة صغيرة وأوصيك بأوراق أمك العجوز التى أمامك .

أعدت لها ما قدمته وقلت :

لا داعى للتعب لقد جئنا لخدمتكم ورعاية مصالحكم وهذا واجبنا ٠

انصرفت السيدة وهى تمطرنى بدعواتها الطيبة ٠

* * *

عدت للشرفة حيث كان الغروب على وشك الرحيل بينما الليل يستعد ليلقى بعباءته الســوداء على الكون وعندما تسلل الى شعرت بالملل وبسرعة توجهت للطبيبة التى كانت على بعد خطوات من الاستراحة ولا يفصــل بيننا سوى جدار ٠ كانت مشغولة فى الكشف على بعض المرض وبعد لحظات عادت لتقضى بعض الوقت معى ٠

قالت وهى تتأملنى بعمق :

ـ يبدو أنك مكتئبة بعض الشىء

سألتها بقلق وضيق :

ـ هل لديك بعض المهدئات ؟

قالت محذرة وبدهشة :

ـ انصحك بعدم تعاطيها ٠ واعتقد أن ما بك لا يتطلب سوى نزهة على الطريق الزراعى لازالة السام ٠

الناتج من ضغوط العمل ٠ فالجو صحو ومنعش فى هذا المساء ٠

سرنا على شاطىء الترعة نستنشق بعض الهواء النقى الذى يطهر النفوس من بعض ما علق بها من كدر وحتى لا نصطدم بالفلاحين العائدين من حقولهم بصحبة البهائم ٠ كانت أحاديث الجالسين منهم على المصاطب تتسرب في همس الى اسماعنا ٠

صوت ١ : ستات البندر لا يهمهم شىء ٠ يفعلون مايبدو لهم ٠

صوت ٢ : الدكتورة والأبلة الجديدة الى أين سيذهبان ؟

صوت ٣ : ربما لزيارة مريض ٠ الدكتورة دائما فى حاجة لفلوس ليل ونهار تجمع جنيهات وترصهم على بعض ٠

صوت ٤ : عندها خزنه يا جدع ٠

صوت ٢ : يهيأ لى أنها تمتلك عمارة مثل أهل البندر ٠

صوت ١ : الكشف مستمر ليلا ونهارا ويمكن اشترت أرضا زراعية ولا مبانى ٠

صوت ٤ : لكن الاخصائية ليست من هذا النوع ويبدو أنها طيبة ٠

صوت ٢ : لأنها جديدة · وكلها أيام وتتعلم وتفرض اتاوة على طلب المساعدة وتفكر هى الأخرى فى مشروع تسمين عجول مثل سمعان بيه ولا العمدة ولا أى مشروع آخر يعود عليها بالربح الوفير ·

كاد هذا الكلام أن يخرق اذنى وقلت للطبيبة :

ـ هل تسمعين ما يدور حولنا · لماذا يسىء هؤلاء فهمنا ·

اجابت ببرود ولا مبالاة :

ـ لقد تعودت على هذا منذ سنين وحفظت كل هذه الحكايات جيدا ولم تعد تحرك فى ساكنا ·

ـ لكننى لا أرضى أن يسىء أحد فهمى ولابد من المواجهة ·

ـ الدنيا ليل وينبغى الا نحدث ضوضاء · وكفى نزهة هذا المساء ·

لزمت الصمت وأنا عائدة بصحبتها وكتمت فى نفسى غيظى ·

سألتنى لتخرجنى من حالة السأم هذه :

ـ ما أخبار المهندس ؟

أجبتها بسرور وقد بدأ القلق يزول بعض الشيء :

ـ لاشيء سوى علاقات العمل ·

ـ أقصد علاقتك به كصديق حميم ·

تسربت بعض الراحة الى نفسى وأخذت نفسا عميقا ملأ صدرى بنسيم الجو المنعش الذى بدا وكأنه سحابة رقيقة · محملة بالمطر ·· وأجبتها فى همس :

ـ اننى ارتاح للحديث معه حتى بعدما علمت بنبأ خطوبته من قريبة له وعندما تمر أيام قليلة ولا أراه ·

يتسرب القلق الى نفسى وأشعر بالخوف ·

قالت وهى تربت على كتفى بحنان :

ـ تقابلا وتسامرا فلا شك أن ذلك سيقربكما من بعض ·

ـ لكيف ونحن نعيش فى واقع تحكمه العادات والتقاليد الريفية الجامدة وأخشى اذا انفردت به لمجرد لقاء برىء يساء فهمى وتسوء سمعتى ·

ـ التقيا فى المركز فهناك بعض المتنزهات والكافتريات وحاولى أن تصلى معه لقرار ·

ـ الجدران لها آذان والفلاحون منتشرون فى كل مكان سواء فى المركز أو فى أى قرية من القرى ·

ـ اذن سافرا الى القاهرة فهى أفضل وهناك أرض الله واسـعة ٠

تنفست بصعوبة وقلت لها بضيق :

ـ المشكلة ليست فى اللقاء ولكن ٠٠

سألتنى على الفور :

ـ ماذا ؟ ثم لماذا تكون هناك مشاكل بين المحبين ؟

ـ لأننى لم أستقر بعد على المكان الذى سأعيش فيـ بقية حياتى ثم ان المهندس مرتبط بارضه وداره وكل املاك والانسانة التى من المفروض أن تشاركه حياته لابد أن تقبل الحياة هنا ٠ هذا بالاضافة الى المشكلة الجديدة ٠

سألتنى بدهشة :

ـ أية مشكلة ؟

ـ خطيبته التى يقول أنه لايحبها ولكنه وافق نظر لضغوط أهله لأنها قريبة له ٠

ـ مازال هناك أمل لانه لم يرتبط بها بالفعل وحاولى الا تخسريه ٠

اجبتها بأسى :

ـ أنا مشحونة بالمشاكل التى تواجهنى فى العمـل ولست فى حاجة الى متاعب أخرى ٠

سألتنى بينما تقترب من باب الوحدة :

ـ وهل تحول المشاكل بين الانسان وحريته ؟

ـ أحيانا وبالتالى تفشل قصص الحب عندما يفقد الطرفان القدرة على الوفاق واحيانا تكون هناك مشاكل مدمرة تقتل العواطف وتقطع كل صلات المحبة والمودة ٠

قطع الحديث عامل الوحدة الصحية وقال :

ـ توجد بعض حالات اكشف فى انتظارك يادكتورة من وقت طويل ٠

قالت لى وهى تتجه نحو الوحدة الصحية :

ـ اذا شعرت بالملل فى امكانك التصرف وقد عرفت الحل ٠

(٩)

شيك بالمرتب

اليوم الخامس فى الشهر ٠ ولم يصلنى المرتب بعد مما جعلنى أشعر بالقلق فما بقى معى من نقود لا يكفى حتى ضروريات الحياة ٠ كيف التصرف اذن ٠ ولمن ألجأ فى هذه البيئة الريفية المليئة بالغرباء ان خجلى يمنعنى من الافتراض من أحد وخصوصا أننى فى بداية حياتى العلمية فى تلك الوحدة الاجتماعية ٠ حتى من احمد بالرغم من أننى أشعر بالقرب منه رغم الضباب الذى يحجب عنى رؤيته بوضوح منذ أن وصلتنى أنباء خطوبته من قريبة له وأدرك تماما أنه اذا علم بحاجتى للنقود فلن يتأخر وسيبذل قصارى جهده لأرضائى ٠

تجمع المستفيدون من أصحاب المعاشات والمساعدات أمام مكتبى بالعشرات ٠ كل يسأل عن الطلب الخاص به ٠

نسيت بصفة مؤقتة ما أشعر به من معاناه فى زحمة الأوراق التى أخرجتها من الدولاب للفحص واستكمال الأبحاث الناقصة ٠

أخرجنى من قسوة هذا الزحام عامل الوحدة المسن على الذى جاء مهرولا وهو يشق طريقه بصعوبة بين هؤلاء الذين افترشوا أرض الوحدة نظرا لعدم وجود دكك أو مقاعد ٠

قال وهو يناولنى مظروفا :

ـ هذا خاص بك يا ست ليلى ٠

أمسكت بالخطاب بيد ترتعد ونفس قلقة فلقد كان يبدو من مظهره أنه من جهة حكومية ٠ وبسرعة البرق قرأت محتواه وقبل أن القى به فى حقيبتى انتفضت واقفة وتأهبت لمغادرة المبنى ٠

سألنى العامل الذى كان لايزال واقفا وينتظر بقلق :

ـ الى أين يا ست الكل والناس فى انتظار طلباتهم وما زلنا فى بداية النهار ٠ ؟

أجبته بلهجة سريعة وابتسامة :

ـ لابد أن الحق بالادارة الاجتماعية لاستلام الشيك الخاص بمرتبى وصرفه ٠

* * *

شعرت ببعض الراحة عندما وصلت لقسم الحسابات بعد مضى وقت قصير · استغرقته (التايوته) رغم كثرة المطبات والمخلفات على الطريق الزراعى ·

اقتربت من احدى الموظفات التى كانت تفرغ الشاى فى بعض الأكواب المصفوفه على المكتب ·

سألتها وأنا أناولها الخطاب ·

جئت من سفر لاستلام الشيك الخاص بمرتبى ·

أجابت بلامبالاة بعدما ألقت نظـــرة ســـريعة على المكتوب :

ــ حررت استمارة منفصلة بالمبلغ وأرســـلت لمجلس المدينة ·

وقفت مذهولة وأنا أهمس لنفسى فى كدر بعدما بدأ الأمل يتضاءل أمام عينى ·

لماذا ارسل ، وما علاقــة المجلس بذلك ؟! يبدو أننى سأعانى من مرارة الروتين الممل ·

تسرب ما صدر منى من همس الى مسمعها فردت على الفور بتكشيرة مفتعلة ·

تلك أوامر الرؤساء وما علينا الا تنفيذها ·

* * *

أسرعت الخطى لألحق بموظفى المجلس قبل انتهـــاء وقت العمل فربما أتمكن من الاحتفاظ بشعاع الأمل الضئيل الذى ما زال يمرح فى غرف النفس الضبابية ٠

وفى قسم الحسابات فى تلك الصالة الواسعة جـدا والمزدحمة بالموظفين وقفت مذهولة : حائرة ٠ تائهـة فى زحمة الضوضاء المنبعثة من الأصوات العالية ٠ البعض يحل الكلمات المتقاطعة ويسأل بصوت مرتفع ورنين التايبست ورقصات ملاعق الشاى فى الأكواب الزجاجية ٠ احتكاك أدوات الطعام المتبقية من الأفطار ٠ أحـاديث الموظفات المثيرة حـــول مـــادار فى بيوتهن مع أزواجهن واولادهن بالأمس وصباح اليوم ٠

انتشلنى احد الموظفين مما غرقت فيه بعد ما يقـرب من ربع ساعة قضيتها واقفة وسألنى ٠٠

طلبات الآنسة ؟

أخذت نفسا عميقا وحمدت الله لأن البعض قد شعر بى وأجبت على الفور ٠٠

لى استمارة منفصلة بمرتب هذا الشهر باسم (ليلى الصاوى) تم تحويلها من الادارة الاجتماعية وأتمنى لو أستلم الشيك اليوم لأننى أقيم فى الريف وتعلمون مـدى المعاناه التى نجدها فى السفر ٠

قالت موظفة وهى تحتسى الشاى بهدوء :

ــ المسئول عن مرتبات الادارة غادر المكتب قبل قدومك بدقائق ولا أحد يعلم الى أين ذهب ومتى يجىء ٠

غلى الدم فى عروقى وسألت بانفعال وضيق ٠

ــ أين المدير أو الموظف المسئول ؟

اقتربت منى موظفة ٠ ربتت على كتفى محاولة تهدئتى ثم ناولتنى كوبا من الشاى وقالت :

ــ اجلسى أولا واشربى الشاى وسنجد الحــل باذن الله ، ثم صاحت قائلة :

ــ أين سكرتيرة رئيس الحسابات المسئول عن الادارة الاجتماعية ٠ هى التى فى امكانها معرفة مكان الاستمارة وهل تم تحرير شيك بالمبلغ ام لا ٠

ألقيت بجسدى المتعب على احدى المقاعد وأنا اكتم فى نفسى صرخة تود لو تعلن تمردها ٠

قال الموظف الذى كان مشــــغولا فى حــــل الكلمات المتقاطعة بسخرية :

ــ ابحثى عنها فى دورة المياه ولا فى البوفيه ولا يمكن ذهبت للسوق أو الجمعية تلحق تشترى فرختين ولا كام كيلو سكر ٠

ازداد انفعالى بالغضب واحسست ان ما بقى من أمل فى صرف الشيك اليوم قد تلاشى وخصوصا عندما ظهرت السكرتيرة وراحت تبحث فى بعض الاوراق بدرج مكتبها بعدما علمت سبب ‥ قدومى ، ثم قالت وهى تتنهد بصعوبة :

الشيك الخاص بمرتبك عاد للادارة للاستيفاء ٠

انطلقت أعدو فى الطريق ولم أسمح لليأس ٠ ذلك الشبح المخيف بأية فرصة ليكبلنى بقيوده السقيمة ومما بعث فى نفسى الطمأنينة مابقى من وقت للعمل ٠

وبينما أصعد بعض درجات السلم متجهة الى قسم الحسابات بالادارة اذا بى وجها لوجه بالموظف الذى التقيت به فى الصباح ٠ قال على الفور :

ـ الشيك الخاص بك أرسل مع بعض الشيكات الأخرى الى البوسطه وهى ليست ببعيدة من هنا ٠ فى شارع السوق وفى امكانك الوصول فى وقت قليل ٠

عادت ذاكرتى للأمس القريب عندما ذهبت لأحد المسئولين بالوزارة وقدمت التماسا برفض نقلى للعمل فى الريف كأخصائية اجتماعية والبقاء فى المدينة حيث مقر أسرتى ٠ ولكنه حاول اقناعى وقال :

ـ خرج الأمر من يدى وصدر قرار وزارى بنقلك كسائر زميلاتك اللواتى استلمن العمل حديثا وتم اختبارهن

للخدمة فى الريف · ثم لماذا تغضبين هكذا ؟! ريفنا قطعة من الجنة ولن تواجهى أية مشاكل وستجدين كل شىء بوفرة من مأكل وملبس ، ··· ، ··· ، ···

ـ حتى المرتب سيصلك أول كل شهر بالاضافة للمكافآت والبدلات ·

اخرجنى من حالة الكدر التى تسربت فى كل كيانى ذلك المشهد المثير فى ركن ما من تلك الشقة المستقلة بهذا المبنى العتيق وتأكدت على الفور أننى لم أتمكن من الاستدلال على مكان الشيك بينما كان أحد الموظفين قد انفعل فى فحص بعض الخطابات ·

سألته على الفور :

ـ أرجوك دلنى على الشيك الخاص بمرتبى هذا الشهر · فقد تم تحويله اليكم من الادارة الاجتماعية ·

قال وهو يشير الى مكتب كبير بالداخل بينما رحت أسرع الخطى لأقترب من هذا المنظر المدهش والذى أثار فى نفسى مزيجا من الضحك والبكاء :

ـ ادخلى للرئيس الكبير فهو المسئول عن حل هذه المشاكل ·

وأمام مكتب مدير البوسطة كدت أن أموت من الضحك والغيظ معا ـ فلقد كان الرئيس وهو بدين يتدلى كرشه

أمامه كبلونة قد امتلأت حتى اخرها بالهواء · يتنـــاول أصنافا مختلفة من الطعام · فول وفلافل ، طرشى ، خص ، بصل أخضر · وقد ابتلعت هذه الأطعمة ثلاثة أرباع مساحة المكتب والتصقت بها الأوراق والاظرف وهنا أدركت أن الشيك قد تاه فى زحمة المهرجان وربما قد أصابه التلف وفى اكلتا الحالتين لن يصرف ·

على أن أنتظر حتى ينتهى من وليمته حيث لا يوجد مسئول سواه · الساعة تقترب من الواحدة والنصف ·

اقتربت منه أكثر وقلبى يدق بسرعة وكدت ان اصرخ فى وجهه وأقول :

ـ لهذه الدرجة تصبح مصالح الناس لعبة فى أيديكم ·

لكننى لزمت الصمت وكتمت فى نفسى غيظى فربما تصب صرختى لعنتها على نفسى وتنقلب ضدى ·

قال الموظف ليطمئننى :

ـ عندما ينتهى من الافطار سيدلك على الشيك فورا ·

قلت له متوسلة :

ـ أرجوك ابحث لى عنه لأنه لن ينتهى الآن · وأنا مضطرة للسفر اليوم ·

قال بهدوء :

ـ اطمئنى · البنك يعمل حتى الثانية والنصف وكلها فركة كعب وتجدين نفسك امامه ·

نظر لى المدير وهو يمضغ الطعام بشكل يثير الاشمئزاز وقال بصوت متحشرج ·

ـ اتفضلى كلى لقمة · يمكن تكونى على لحم بطنك من الصبح ·

أجبته وأنا أكتم فى نفس بركانا من الغيظ يود لو ينفجر :

ـ الساعة تقترب من الثانية ولا زلت لم أستلم الشيك الخاص بى ·

حاول ان ينهض بصعوبة وهو يلتهم ما بقى من طعام وقال وهو ينهج بينما العرق يتصبب من جبهته :

ـ العمل أولا · توكلنا على الله ·

همست لنفسى ساخرة ··

ـ ونعم المدير الكفء مصلحة العمل عندك فوق كل اعتبار حتى لو كان الغذاء نفسه ·

قال موجها كلامه للموظف :

ـ الشاى يا جمعه ولا تنس الهانم ·

ـ اشكرك على كرم ضيافتك · لكنى مستعجلة وكلى أمل في الحصول على الشيك قبل مغادرة المبنى · سأل جمعه بصوت مرتفع :

ـ نظف المكتب ياحمار ·

سحب الساعى بعض الأوراق من فوق احدى الدواليب والتى لا فرق بينها وبين اســتمارات المرتبات والأظرف الصالحة للاســتعمال ثم مسح بها ما علق بالمكتب من بقايا الطعام ·

تسربت الطمأنينة الى نفسى عندما بدأ المدير يبحث لى عن طلبى ولكن خاب ظنى عندما سألنى :

ـ طلبات الآنسة ·

اجبته بغيظ وكدر :

ـ سبق أن قلت لسيادتك ان الادارة الاجتماعية ارسلت الشيك الخاص بمرتبى الى هنا وارجو استلامه لالحق بالبنـك ·

اعتدل المدير فى جلسته وراح يدق بكفه على كرشه ويقول :

ـ الشاى يا جمعة الأكل حام جدا وبطنى تكاد أن تنفجر · ولا تنس الشيك الخاص بالست · ابحث عنــه فى دفتر الوارد ·

بعد لحظات عاد الساعى ليقول :

ـ لايوجد يا سعادة البيه • لم نتعود استلام شيكات من الادارة الاجتماعية أو غيرها •

رد المدير بعصبية :

ـ ترسل يا غبى عندما يتأخر الموظف عن الحضور لاستلامها •

اجبته بلهجة سريعة :

ـ لكنى لم اتأخر وجئت فى الميعاد الموضح بالخطاب •

قال المدير وهو يحتسى الشاى بصـــوت مســموع ومقزز :

ـ انصـحك يا ابنتـــى بالعودة لـــلادارة للبحث والاستفسار بدقة من المسئولين •

تسربت كلماته الى اذنى كالريح العاصف وكدت ان اختنق • ولم أعد أحتمل رؤية أحد أو الاستماع لأى شىء ـ لأخرج للطريق حيث الزحام والناس والعربات واصوات البائعين والدواب فربما يخفف هذا الخضم بعض ما أعانى منـــه •

وقبل أن اغادر عتبة الباب الخارجى اذا بصـــوت جمعة ينادينى :

ـ يا آنسة عثرنا على الشيك فى بوسطة مجلس المدينة وفى امكانك استلامه ٠

عدت بخطوات وئيدة وقد بدأ اليأس يودع نفسى بالتدريج ٠

سألت المدير بغيظ :

من المسئول عن رحلة العذاب التى بدأتها من الصباح الباكر وحتى نهاية وقت العمل ؟

قال ببساطة وهدوء :

مجرد خطأ يحدث كل يوم وأحيانا كل ساعة ثم كلنا نمر بعذاب يا ابنتى ونتألم من أجل لقمة العيش فلا يوجد حلوى بدون نار ٠

(١٠)

نزهـــــة

قبل الخروج وبينما استعد لمغادرة الاستراحة متجهة للقرية لاستكمال التوعية لمشروع الرائدة دق الباب ٠

الطارق عامل الوحدة الصحية ٠

قال بلهجة سريعة :

ـ الدكتورة فى انتظارك لأمر هام ٠

ـ سأحضر حالا ٠

همست لنفسى وأنا فى طريقى اليها :

ـ يبدو أنها مريضة أو اصابها مكروه أو ربمـــا ارادت أن تحكى لى قصة طريفة من حكاياتها مع الفلاحين فهى دائمة الشغب معهم ٠

التقيت بها فى الحديقة · كانت فى طريقها لحالة كشف · قالت وهى تقاوم الارهاق :

ـ لقد سئمت فحالات البلهارسيا وحدها كانت بالعشرات وفى أمس الحاجة لنزهة على الطريق الزراعى وأتمنى مصاحبتك ·

ـ لا مانع لأننى فى أمس الحاجة للترفيه عن نفسى أيضا وفى نفس الوقت سأمر على بيت المحضر لمقابلة زوجته التى تنطبق عليها شروط الرائدة الريفية · هذا ما قالته زوجة العمدة وبالتالى أكون قد ضربت عصفورين بحجر لكننى أجهل العنوان ·

ـ لا تشغلى بالك دارها على بعد خطوات من فيلا بنك التسليف وحتما سنمر عليها للكشف على ابنها الرضيع ·

***

انتظرت الطبيبة حتى تنتهى من الكشف على الصغير فى احدى حجرات هذا البيت الكبير الذى كان كل شىء فيه مبهرا ويوحى بأننا فى قلب المدينة · فلقد امتلأ بالأثاث المودرن والأجهزة الكهربائية الحديثة وحنفيات المياه حتى الجدران طليت بالزيت ·

تذكرت دار السيدة المسنة التى تقيم فى نفس الحارة وعلى بعد خطوات من تلك الدار وسبق ان تقدمت لطلب

معاش وقمت بزيارتها لاجراء البحث وكم أصابتنى الدهشة وهزنى الألم عندما رأيت الصغيرة لا تزيد عن صـــندرة فيها بعض الاوانى القديمة ولمبة غاز ووابور غاز وبعض قطع الحصير الممزق وبقايا كليم قديم ولا أثر لطيور أو بهائم ولا ديك يتمتم فى قلب الفناء الصغير الذى يتوسـط الـدار ·

اقفت من شرودى على صوت الطبيبة وهى تقول لزوجة المدير بعدما ناولتها زوجتة العلاج :

ـ الحالة بسيطة · مجرد نزلة برد خفيفة وفى امكانك صرف هذا العلاج ·

***

سرنا قليلا على شاطىء الترعة بينما الليـل يهمس للغروب وكأنما يستأذن فى الرحيـــل تاركا مكانه لستائره الرمادية · تسرب الهواء لأنفاسنا نقيا فطرد ما بها من غبار وشعرنا بانتعاش بعد تعب طول النهار ·

شد انتباهى بعض الأولاد الذين كانوا يقفزون فى مياه الترعة المليئة حتى أخرها بالمياه وقد خلعوا ملابسهم على الشاطىء ولم يعد شيئا يستر عورتهم ·

قلت للطبيبة والأسى يعصر قلبى :

فى الترع والمصارف نظرا لانتشار قواقع البلهارسيا فيها والتى لا ترحم اجساد الصغار بل سرعان ما تسرى دودتها اللعينة وتتغذى على دمائهم · وللأسف يستمعون جيدا ويعدوننى بالتنفيذ وفى لمح البرق يتبخر هذا الكلام (وكأنك يا ابو زيد ما غزيت) ولم اياس بل ارسلت لشيخ الزاوية مذكرة بخصوص هذا ليذيعها من آن لآخر ·

قلت لها بعدما مللت هذا الحديث :

ـ اننا نسير بلا هدف · الى اين ؟

ـ انا فى حاجة ماسة لهذا الجو النقى حيث الهواء الطلق والهدوء بالاضافة لصوت الضفادع الذى يتسرب الى اذاننا كموسيقى تخفف من وطأة الألم على انفسنا ·

ـ وانا لا أقل عنك احتياجا لهذا الجو المنعش لكن فكرى معى كيف نعثر على رائدة ريفية واتمنى الا تخذلنى زوجة المحضر كما خذلنى العمدة

ـ كيف حدث هذا ؟

شروط الرائدة تنطبق على ابنته فهى حاصلة على الاعدادية ومتحدثة لبقة وتعانى من فراغ وتعرف كل خرم أبرة فى البلد وبرغم ذلك أنكر أن له ابنة ·

ـ الكبار فى تلك البلد لهم فلسفتهم الخاصة وأعرافهم وكلمتهم مسموعة ·

قلت لها بكدر :

ـ اذا لم يكن هؤلاء قدوة فمن الذى سيصبح كذلك ؟ هل الفلاح البسيط . ؟

ـ دعينا من هذا الكلام لأنــــه غير مجد وينبغى أن نفكر فى كيفية عمل التوعية الصحية .

ـ لابد من تكثيف الجهود اللازمة وليكن عن طريــق الندوات والمحاضرات التى يستمع لها اهل القرية جميعا وخصوصا السيدات والرجال أيضا ويا حبذا لو دعمت بالأفلام التسجيلية لتشرح أسباب الأمراض الخطيرة وكيفية الوقاية منها .

قالت الطبيبة بابتسامة أمل :

ـ كلامك صح لكن لا وقت عندى لهذا المجهـــود . بالاضافة لقلة الامكانيات وكسل الاجهزة المســـئولة عن الارشاد والتوعية ومثال على ذلك ..

ـ ولدى عجز فى بعض الأدوية المهمة وأرســـلت للمسئولين وكان الروتين والاهمال يضرب بكل شىء عرض الحائط .

ـ فهل لو طلبنا مثل هذه الأجهــزة الفنية ســـنجد استجابة ..

ـ ربما هناك أمل فى مشـروع الرائـدة الريفية ٠ فالتوعية لمثل هذه المشروعات أهم مسئوليتها ٠

قالت الطبيبة بيأس :

ـ ربما هناك بصيص من الأمل ٠ على أية حال نصف العمى ٠٠٠ الخ .

اشارت لى وقد اقتربنا من مبنى كبير وقالت :

ـ انظرى هذه دار المحضر ٠ تلك التى تلفها حديقة وارفة الظلال ٠

(١١)

زوجـــة المحضـــر

لمحنا سيدة شابة ونحن نقترب من ذلك المبنى الكبير ذى الساحة الواسعة والتى من الممكن ان يعقد فيها سباق خيل ٠٠ وكانت ترتدى فستانا « مودرن » وتغطى رأسها بطرحة سوداء ٠

ـ أهلا وسهلا بالضيوف الاعزاء ٠٠ الدكتورة فى دارنا ٠٠ زارنا النبى ٠٠

وجدنا انفسنا حائرين وسط هذه الدار الواسعة جدا ٠٠ أشارت الى حجرة المسافرين وهى تزيح الطرحة عن شعرها المنساب خلف ظهرها وبثقة واعزاز ٠٠ قالت :

مظهرى لا يدل على أنى فلاحة ٠٠ أنا من القاهرة وكل أخوتى تخرجوا فى الجامعة وحصلوا على وظائف

عالية بينما كنت البنت الوحيدة ·· لذلك لم أواصل تعليمى ونظرا لحاجة البيت لى ·

ـ حصلت على الثانوية فقط واضطرتنى الظروف من زواجى من قريبى المحضر ·· واعيش معه هنا فى القريـة التى تبعد عن عمله بمسافة قصيرة ·

قدمتنى الطبيبة قائلة :

ـ الأبلة ليلى الاخصائية ·· وأعتقد انكم سمعتم عن نشاطها بالتوعية لمشروع الرائدة الريفية ·· وبلغنا أن لديك استعدادا للعمل ·

أجابت السيدة بلهجة سريعة وسرور وهى تقدم بعض الحلوى :

ـ أنا فى أمس الحاجة للخروج من العزلة والفراغ الذى أعيش فيه ·· هنا لن تجدى من يتفاهم معك وخصوصا ان كنت غريبة عن البلد ·

لاحقتها قائلة :

ـ فى امكان الانسان التكيف فى أى واقع يعيشه ومع أى نوع من الناس وذلك عن طريق العلاقات الطيبة والروح المعنوية والاختلاط السليم ·

قالت بضيق وهى تقدم بعض المثلجات :

ـ مع الأسف حاولت كثيرا مع بعض القرويات هنا لدرجة أننى أحيانا استقبلهن فى بيتى ونتسامر واعلمهن عمل المربات والحلوى لكن لا فائدة ·· كن يعتقدن أننى أحسن حالا منهن بل واتعالى عليهن ··

أجابت الطبيبة :

ـ ربما ترجع هذه المعاملة الى مظهرك ولهجتك ·· فمازلت تحتفظين بملامح أهل المدينة ··

قالت السيدة بأصرار :

ـ لن أتخلى عن شخصيتى ولهجتى وكونى قاهرية ··

زحف الليل وغطى القرية بعباءتها السوداء ·· اللهم الا بعض الأضواء الخافتة والمنبعث معظمها من لمبات الغاز ·· كان علينا ان ننصرف ·· سألت الزوجة ··

هل فى امكانك زيارتى فى الواحدة صباح الغد لملء استمارة الرائدة الريفية ··

ـ لن اتمكن من الحضور الا بعد موافقة زوجى وهو على وشك الوصول ··

الوقت يمر بسرعة ولا أمل فى وصول المحضر ·· خشينا أن ننسى أنفسنا فالطبيبة فى حاجة الى وقت للكشف على بعض حالات الكشف المستعجلة هذا المساء ·· وأنا أيضا اخشى دخول الاستراحة اثناء الظلام حتى لا أسبب ازعاجا للمهجرين الذين يقيمون بالوحدة ·· وقبل ان

ننصرف نبهنا على الزوجة بأن تبلغ الزوج بضرورة الاتصال بالوحدة الاجتماعية صباح اليوم التالى لمعرفة رأيه حول ترشيح زوجته للعمل فى المشروع ٠

وبينما نغادر الباب الخارجى للمبنى اذا بنا وجهـــا لوجه برجل ٠٠ قالت الطبيبة فى الحال ٠٠٠ المحضر وصل وفى امكاننا الحديث معه ولو لدقائق ٠٠

صحبنا الى الحديقة بعد ان حيا كل منا الآخـــر ٠٠ فالجو فيها منعش ورائحة الورد تعطر النفوس وتزيل السأم بالاضافة الى الأركان المريحة التى اعدت من جريد النخـل وأعواد الحطب خصيصا للجلوس بالاضافة الى عناقيـد العنب التى تدلت وسال لعابنا لها ٠٠

قالت الطبيبة وهى تشير الى :

ـ الأبلة ليلى :

لاحقها قائلا :

ـ سمعنا عن نشاطها الكثير فهى أخصائية ناجحة ٠٠

ـ باختصار ترغب فى معرفة رأيك حول امكانية ترشيح زوجتك للعمل فى مشروع الرائدة الريفية وخصـــوصا ان الشروط تنطبق عليها ٠

قطعت الحديث زوجته التى اختفت قليلا بين دهاليز تكعيبة العنب وعادت وهى تحمل عشرات العناقيد ثم قدمته لنا وهى تقول :

ـ هذا نصيبك يا دكتورة انت والأبلة ليلى ..

انشغلنا بعض الوقت فى التهام كمية لا بأس بها حيث اغرانا طعمه اللذيذ بينما عاد المحضر ليواصل كلامه من ناحيتى لا مانع ولكن بشروط ..

تسرب القلق الى نفسى وخشيت أن تكون صعبة التنفيذ فليس من السهل العثور على مثل هذه السيدة فى القرية كلها .. بل وفى القرى المجاورة ..

واصل المحضر حديثه وهو يقدم لنا المزيد من العنب .

ـ أهمها ان تقضى فترة التدريب وهى الثلاث شهور فى الوحدة الاجتماعية لا فى المركز أو القاهرة كما هو متبع أو شىء من هذا القبيل .

أجبته بضيق ..

سأحاول تنفيذ ما استطيعه اما فيما عدا ذلك فالحل فى أيدى المسئولين ..

اقتربت منى الطبيبة ونحن نتأهب للرحيل وقالت هامسة ..

ـ ليس من السهل تنفيذ أى شىء يعود بالفائدة على القرية والفلاحين فهنا العراقيل تفوق الوصف .

قال المحضر وهو يفتح الباب الخارجى :

ـ اننا نحب بلدنا ولابد أن نقوم بالواجب نحوها ..

(١٢)

شيخ البلد

في دار شيخ البلد استقبلتنا زوجته بحفاوة · تلك السيدة المسنة التي كانت ترتدي ملابس سوداء وتتحدث بلهجة أهل المدينة ·

قالت وهي تصحبنا داخل الدار حيث صالة الضيافة :

ـ أهلا بالدكتورة والأبلة الاميرة ·

اضافت الطبيبة وهي تشير الى ·

ـ ليلى أخصائية جديدة بالوحدة الاجتماعية · الغرض من الزيارة اليوم نشر الوعي الصحي والاجتماعي وخصوصا مشروع الرائدة الريفية ·

قالت السيدة بصوت مرتفع وهي ببصرها الى الداخل ·

ـ الشاى يا بتعة واستعجلى أباك ·

ثم واصلت معنا الحديث ··

شيخ البلد مشغول فى بحث شكاوى الفلاحين التى لا تنتهى ·

وبينما نشرب الشاى أقبل رجل مسن يرتدى عباءة وجلبابا وقد ارتسمت علامات الطيبة على وجهه ·

هرولت السيدة نحوه وقالت وهى تكاد أن تنحنى :

ـ الدكتورة والابلة الاخصائية فى ضيافتنا يا حاج عبد العليم ·

قال وهو يضع عصاه جانبا ··

ـ أهلا بالضيوف · بلدنا نورت · زيارة مبروكة ·

لاحقته الزوجة ··

ـ كلها خير لأهل القرية ·

قطعت الحديث قائلة :

ـ فى الحقيقة هدفنا نشر الوعى لبعض المشروعات الحيوية التى تعود على الفلاحين بالفائدة كمشروع الرائدة الريفية ، محو الأمية والنادى النسائى ونأمل فى ترشيح فتاة أو سيدة شابة تمثل قريتكم مع مراعاة توافر شروط الرائدة التى تعلمها ·

قال وهو يعتدل فى جلسته ويتناول بعض الشاى ·

ـ قريتنا الصغيرة هذه كرمهـا الله بنـاس طيبين والتعاون يجرى فى دمهم لعمل الخير لكن مع الأسف توجد معوقات ·

انفعلت الطبيبة بالغضب وقالت :

ـ من المسئول عن التعطيل ؟

اجاب وهو يتنفس بصعوبة :

ـ رئيس وحدتكم · سمعان بيه عرضنا عليه بعض المشروعات المهمة والتى تفيد أهل البلد منها نادى الطفل ومحو الأمية مع الاسف رفضها بحجة أنها ستشكل عبئا على ميزانية الوحدة بالاضافة الى أن مشروعات الوحدة فى حاجة الى تطوير وتنشيط واذا وجدت ميزانية جديدة فهى أحق بها ·

سألته بدهشة :

لماذا لم تلجأوا للادارة الاجتماعية أو المديرية ·

ـ فعلنا وقدمنا مستندات تفيد بأن بعض الأهالـى تبرعوا بالأماكن اللازمة لاقامتها ولكن كان رأيهم دائما ان نلجأ الى الوحدة الاجتماعية أولا لمعرفة رأيها ··

سألته الطبيبة بكدر :

ما هدفه من وضع العراقيل ·· ؟

أجاب شيخ البلد :

ـ بالنسبة لمحو الامية يرى أن الفلاحين ليس لديهم وقت فراغ لذلك فهم يعملون فى الغيط طوال النهار ويعودون لديارهم ليلا للراحة ويرفض مناقشتى معه عن الذين يرغبون فى التعليم ويبرر ذلك بأن الوحدة الاجتماعية هـى المركز ومقر لاى مشروع ٠

عقبت الدكتورة :

ـ كيف يسافر الفلاح يوميا من هنا الى مقر الوحدة ويقاسى فى زحام القطار أو الاتوبيس بالاضافة الى تعبه من عمله فى الحقل ٠

ساد صمت ٠ ذهب شيخ البلد بفكره لبعيد وقال :

ـ مثل هذه المشروعات كانت ستفيد الشباب المتحمس من اهل قريتنا وتشغل وقت فراغه لكن الآن لامكان لهـم سوى القهوة أو الطريق الزراعى ٠ يقضون معظم وقتهـم فى السمر والحكايات ٠

أضافت زوجة شيخ البلد ٠

ـ حتى الاطفال رفض أن ينشىء لهم دار حضانة فى البلد بحجة أن الموجودة بالوحدة افضل بكثير وأفيد لهم ٠ بالله عليكم ٠ كيف يسافر الأطفال يوميا والطريق صـعب وكله مطبات وغير مرصوف بالاضافة لزحام المواصلات من من الآباء سيوافق على أن يعرض ابنه للخطر ٠ ؟

(١٣)

الفناتـــان

سأل شيخ البلد زوجته أن تصحبنا الى حديقة الدوار حيث الهواء الطلق والخضرة حتى تخف حدة القلق الذى انتابنا ·· ولتناول عشاء خفيفا ·· وبالفعل شعرت ببعض الراحة النفسية عندما القيت بجسدى على احدى الدكك المصنوعة من جريد النخل والحطب فى ركن من هذه المساحة الكبيرة من الخضرة والتى تبلغ ربع مساحة الدوار ·

ـ كنا نستظل بأشجار البرتقال والنخيـــل والليمون وأمامنا بعض الخضروات منها الخس والجعضيض والفجل والجرجير والكرنب والنعناع ·

نادت السيدة على صبية حسنة المظهر وترتدى ملابس ريفية ذات ألوان زاهية وقالت :

ـ العشاء للابلوات يا بتعه ..

قلت ببسمة امل موجهه كلامى لشيخ البلد :

ـ ننسى الماضى ونبدأ من جديد ونجرب فلن نخسر شيئا .. وكل ما نريده الآن ان ترشدنا لمن تصلح رائدة .

قال وقد امسك بعصاه استعدادا للوقوف :

ـ نعم لابد ان تكون متعلمة وحاصلة على الثانوية العامة على الأقل وخفيفة الظل واجتماعية لانها ستكون على صلة دائمة بالفلاحين .. نادى على الصبية التى حضرت وهى تحمل صينية كبيرة امتلأت بالفطائر وأطباق عسل النحل والقشدة وقال :

ـ اذهبى بسرعة لدار فاطمة وبهية ولا تعودى الا وهما معك فهما خير من يمثل الرائدة .

ثم واصل الحديث مشيرا الى والى الطبيبة ..

فى امكانكما التعرف عليهما الى أن انتهى من مشاكل الفلاحين لأنهم مازالوا فى انتظارى فى استراحة الزوار قالت الزوجة وهى تقدم لنا الطعام :

ـ ابنتى بتعة خرجت بها من الدنيا هى واخوها الذى يعمل مدرسا فى مصر .. حجزتها فى الدار بعد حصولها على الابتدائية وقريبا سيتم عقد قرانها على ابن خالتها .

سألتها على الفور ..

ـ كم تبلغ من العمر ؟

ـ ثلاثة عشر لكن لن ازوجها الا عند بلوغها السادسة عشر .. اننا نعرف القانون جيدا والخطأ ليس فى طبعنا مثل كثير من الفلاحين .

قالت الطبيبة معقبة :

ـ فى الحقيقة بعض الفلاحين يضعوننى فى موقف حرج عندما يأتينى والد العروس يطلب شهادة تسنين وتكون ابنته لحظتها فى الثانية عشر من عمرها او الثالثة عشرة على الأكثر ويسألنى .. أن ادون فى الشهادة السن القانونية للزواج .. وبالطبع ارفض ويضطر للبحث عن طبيب آخر ..

اضافت زوجة شيخ البلد ..

وبالطبع يجد بدل الطبيب عشرا ..

قطعت الحديث بتعة التى جاءت وبصحبتها فتاتان ..

وقالت وهى تقدمها لنا ..

فاطمة وبهية ..

قالت الزوجة وهى تربت على كتف فاطمة

ـ فاطمة النبى يحرسها والدها فلاح يعمل بالأجر

ومكافح وطيب علمها بعرقه حتى حصلت على الثـــانوية ورفض زواجها رغم كثرة خطابها ٠

سألت الفتاة المثقفة :

ـ هل واصلت تعليمك للجامعة ٠٠ ؟

اضافت زوجة شيخ البلد ٠٠

ـ المصاريف كثيرة والحال يعلم بها ربنا ٠٠

قالت فاطمة :

ـ بالاضافة لصعوبة المواصلات الى المدينة والزحام والطلبة وكثرة الشبان الذين يركبون القطار يوميا ٠ قطعت الحديث بهية وقالت :

ـ وانا أيضا أخذت الدبلوم بصعوبة ورفض والدى اتمام تعليمى رغم أننى حصلت على مجمـــوع يؤهلنـــى للالتحاق بالجامعة وذلك لنفس الأسباب وأمنيتى ان أجد وظيفة لتحسين حال أسرتى ٠٠

قالت الطبيبة موجهة كلامها لبهية :

ـ لو كنت حصلت على دبلوم التمريض كنت عملت معى فى الوحدة الصحية ٠٠

سرحت مع نفسى ٠٠

لهذه الدرجة تحرم الفتاة من التعليم ·· فى امكان فاطمة ان تصبح طبيبة أو مهندسة تؤدى دورا جليلا فى المجتمع ·· وفى امكان بهية ايضا لو واصلت تعليمها ان تصبح محاسبة أو مديرة شركة لها شان وكيان فى بلدها لكنه الفقر والجهل الكاتم على انفاس العشرات ·· والذى لا مخرج منه سوى التمرد على هذا الواقع المرير ·

مر الوقت سريعا حتى أوشك الغروب ان يكسو السماء بثوبه الرمادى ·· استاذنا فى الانصراف بعد ما وعدت الفتاتين بالبحث عن عمل بصفة مؤقتة وبالفعل طلبت من كل منهما زيارة الوحدة الاجتماعية لملء اســتمارة الرائدة والحاق الاخرى بمشغل الفتيات ··

اصر شيخ البلد على اصطحابنا الى محطة الاتوبيس نظرا لصعوبة المواصلات وخطورة الطريق ليلا وأثناء سيرنا اشار الى مبنى كبير وقديم وقال :

ـ هذا دوار العمدة القديم ·· تجمع شــباب البلـد الواعى وفكروا فى استغلاله كمركز لمحو الأمية وعنـدما فشلت محاولتنا لتدعيمه من الجهات المسئولة ظلت عزيمة الشباب قوية ولم ييأس وواصل العمل بالجهود الذاتية وتخرج بعض الفلاحين فى هذا الفصل المتواضع ومنهـم والد فاطمة ووالد بهية ·· تعلما القراءة والكتابة على أيدى الشباب ·· وكنا نريد ان نتوسع فى المشروع لكـن مع الأسف لم نتمكن للاسباب السالفة الذكر ··

ثم اشار الى مبنى قديم شبه مهجور وقال :

ـ وهذا تبرع به أحد أعيان القرية وفكر الشباب فى استغلاله ناديا ٠٠ لهم لكنهم فى حـــاجة الى امكانيات وصلنا البلد وقبل أن يغادرها شيخ البلد قالت الطبيبة ٠

ـ ان ما يفعله الشباب شيء عظيم ويفوق الوصف ٠٠ حقيقى ان عزيمة الشباب لا يوقفها أحد ٠٠

اضفت قائلة :

فى الامكان تنفيذ اى مشروع عن طريق الوحــــدة الاجتماعية أيضا بأن تسجل جمعية مجتمع بالقرية وسوف اتعاون معكم فى تأسيسها والاشراف عليها ٠٠

سأل شيخ البلد بكدر :

ـ وهل سيسمح لنا الرئيس ٠٠ ؟

اجبته ببسمة أمل :

ـ نحاول ونبدأ من جديد ٠٠

(١٤)

المفتـــش

اشتد البرد هذا الصباح وسقطت الأمطار غزيرة ومن ثم اغلقت باب مكتبى ·· فجاة فتح بلا استئذان القادم يرتدى زى اهل الحضر ··

سالنى بجراءة وهو يناولنى بعض الأوراق :

ـ هذا طلب مساعدة مجندين لشقيقى بالجيش ونرجو صرفها باسم الوالد ··

اجبته وانا احاول التذكر بعدما فحصت الأوراق ·

ـ اعتقد انك مفتش التموين ·· وجئتنى من قبل لنفس الغرض ؟

اجاب بجراة :

ـ نعم ومرفق الأوراق السليمة لأنك اعترضت على الطلب الاول نظرا لوجود بعض الاخطاء ·

سحبت سجل مساعدة المجندين وقرات اسماء الحالات التى تستحق المساعدة والأخرى ·· المرفوضة وقلت له :

ـ الطلب مرفوض لأن شهادة الحيازة الزراعية مسجل بها ملكية الوالد لثلاثة افدنة أى انه لا يستحق ·

قال بغيظ ·· وكانه يأمرنى :

ـ اقرئى الأوراق التى معك الآن ·· ومرفق بها شهادة حيازة جديدة تنفى سابقتها ·

اندهشت بعدما تصفحتها وقلت له ··

فعلا ·· تخلو من أية حيازة ·· لكن هذا تناقض بين الشهادتين ··

اجاب بانفعال :

ـ ما عليك الا ان تقومى بالبحث ولديك المستندات مستوفاة وكفى ضياع مصالح الناس ووقتهم ··

اجبته بغيظ :

ـ لكن الطلب رفض لأن المجند لا يستحق المساعدة ولعدم انخفاض الدخل ··

واصل بلهجة الأمر :

ـ فى امكانك الغاء الطلب الاول وابحثى من جديد ·

ـ كيف تفكر بهذا الاسلوب وقد حصلت على قدر كبير من التعليم ..

رد بعنف وكأنما يهم بصفعى :

ـ مازلت احترم ضيافتك فى بلدنا ولا داعى لاستعمال العنف .

اشتعلت نار الغضب فى نفسى وفكرت أن الجأ لبعض المسئولين فى المجلس المحلى للتصرف معه نظرا لعدم وجود رئيس الوحدة أو استدعى احد العمال لطرده ولكنى خشيت أن أبدو ضعيفة أمام هؤلاء وغير قادرة على تحمل مسئولية العمل .. علما بأن المسئولين قد وضعوا ابان اجتماع المجلس ثقتهم وايمانهم بقدرتى على مواجهة أية صعوبات ..

قلت له بتحد :

أنا لست ضيفه ولكنى موظفة وأؤدى عملى كما ينبغى ووفقا للوائح المنظمة للعمل ..

سأل بتحد :

ماذا سيحدث لو ألغيت الاستمارة واعتمدت الثانية ؟

ارجوك لا داع لتضييع وقتى ووقتك لأن ما تقوله هو عين الخطأ وذلك بعدما تأكدت بنفسى وأطلعت على سجلات

الجمعية الزراعية وذلك اثناء وجود رئيسها الذى نفى تماما هذا التناقض وأكد صحة الشهادة الأولى ..

غادر المكتب وهو فى حالة غليان من الغيظ بينما رحت أصب غضبى فى فحص باقى أوراق البحث التى امامى عاد بعد قليل وبصحبته موظف بالمجلس المحلى لم يسبق لى رؤيته الا نادرا ..

قال وهو يشير الى المفتش :

ـ هذا الشاب يهمنى أمره ووالده فى حاجة الى المساعدة .. ينبغى أن تكونى مرنه ياست ليلى . اننا هنا اسرة واحدة والغرض أن نساعد بعضنا .

قلت له بدهشة :

ـ اعتقد انك موظف وتعرف القانون ثم اذا خالفت اللوائح من الذى سيتحمل المسئولية ؟

تلعثم لسان الموظف وحاول الهروب من الاجابة وعاد ليقول :

ـ ليس من الضرورى احضار الشهادة فوالده فقير وأهل البلد يعرفون ذلك حتى لو كان يملك قطعة أرض فهى فى حاجة للانفاق عليها ..

أجبته بدهشة :

ـ حتى لو كان الأمر كذلك فلابد من وجود ما يثبت ذلك ولقد تأكدت بنفسى ٠٠

عاد شريط الذكريات لبضعة ايام مضت عندما قمت برحلة معاناه لهذا الغرض حيث ذهبت بنفسى الى مقر الجمعية الزراعية لفحص الأوراق بدقة والحصول على المعلومات من واقع السجلات ٠٠ وهى عبارة عن حجرة صغيرة ورديئة بنيت بالطوب النىء ٠

لحظتها كان الباب مفتوحا ولا يوجد صريخ ابن يومين وعندما سألت بعض الفلاحين عن المسئول عن هذا الكهف المهجور أفادوا بأن رئيس الجمعية لم يأت اليوم ٠

ذهب للسوق لقضاء بعض حاجاته ٠٠ دب اليأس فى نفسى ولم أجد الا ان اتجه لزيارة شيخ البلد للبحث عن الرئيس ٠٠

وفى داره الواسعة استقبلتنى زوجته بحفاوة وهى سيدة فى الخمسين من عمرها وترتدى فستانا أسود وملسا يخفى ملامح وجهها ٠٠ بينما هو يكبرها بقليل وكان يرتدى جلبابا بلديا وطاقية ٠٠

قال بابتسامة وهو يربت على كتفى :

الحقيقة يا ابنتى لم نجد أخصائية فى مثل حماسك واخلاصك للعمل ٠٠

وانتهز فرصة وجودى واستدعى معظم المســـتفيدين الذين لهم مساعدات فى الوحدة ٠٠

بدأ هؤلاء يتوافدون على الدار الواحد تلو الآخر ٠٠ حضر فى البداية رجل شيخ فى الثمانين وقد ركب حمارا بينما صحبه شاب ٠

أما الثانى فهو مسن أيضا وقدم له الطلب ابنه المجند وقد مضى عليه أكثر من سنة ولم يجر له البحث حتى ذلك الوقت ٠٠

والثالثة عجوز ٠٠ وفى حالة سيئة ٠٠

سألتهم جميعا عن عدم ترددهم على الوحدة لاستكمال أبحاثهم :

ـ أفادوا فى صوت واحد بأنه لا أحد ساعدهــم فى تلبية طلبهم أو أخبرهم بانهم يستحقون المساعدة بالرغم من أنهم لا يملكون من حطام الدنيا شـــيئا واعتقدوا ان طلباتهم رفضت ٠

شرحت لهم جميعا بأن الذى يرفض طلبه هو الذى يملـك أرضا زراعية ٠٠ وتعجبت لحـــال هؤلاء وتذكرت كلام رئيس الجمعية الزراعية الذى كان يقول دائما :

معظم الذين يتقدمون للمســــاعدة من الفلاحين ليسوا فى حاجة اليها لأن لديهم حيازات زراعية بالاضافة للطيور والمواشى وزراعة الخضروات ٠

وانصرفت عائدة للجمعية الزراعية بعد ما اخبرني شيخ البلد ان الرئيس هناك استيقظت على صوت الموظف يقول بضيق :

ــ لاشك انك صعبة للغاية ‥ هذا لم يكن يحدث قبل مجيئك ‥

أجبته بغيظ :

ــ هذا عملى ولست مسئولة عما يحدث فى الماضى ‥ ظل الموظف يلح على اكثر من مرة حتى البى للمفتش طلبه ‥ وفق رغبته وعندما لميجد فائدة انصرف وبداخله بركانا من الغيظ بينما توجه مفتش التموين الى رئيس الوحدة وبعد مناقشة قصيرة معه عاد ليقول :

ــ سمعان بيه يطلب منك ‥ تنفيذ طلبى ٠

أجبته على الفور ‥

ــ انفذ وفق اللوائح والقوانين الخاصة بالعمل وما ينطبق عليك هو الذى يسرى على أى مستفيد ‥ ثم كيف نفكر بهذا الأسلوب وتدرك تماما عقاب من يخالف اللوائح علما بأنك متعلم وخريج جامعة ‥ ؟

ــ اللوائح لا تطبق فى كل الأحوال بدقة ثم ان الضرورة لها احكام ‥

اية ضرورة التى تدفعك للسلوك المنحرف ‥ ؟

قال بياس :

ـ اننى فى امس الحاجة لهذه المساعدة لانها ستعفينى من جزء كبير من التزاماتى المادية نحو الوالد المسن الذى يصر على ان أشارك بجزء من دخلى فى المعيشة لاننا نقيم فى دار واحدة وهى بيت العائلة ..

المشاركة واجب عليك ..

واصل الحديث بخضوع وقد القى بجسده على المقعد وكانما قد اصابته هزيمة مروعة ..

انا متزوج واعول اولادا والمبلغ الذى ادفعه لوالدى شهريا يؤثر على مستواى ويسبب لى مشاكل مع زوجتى بصفة مستمرة .

كان وقت العمل قد اوشك على الانتهاء بينما مفتش التموين مازال ينتظر فى مكتبى ربما توقع أنه سيكسب عطفى واغير رايى مشفقة لكننى حملت حقيبتى واستاذنت وانا اقول له :

ـ هذا حق الوالد ولا ينبغى ان تمنعه مهما حدث من مشاكل ثم فى امكانك البحث عن عمل اخر فى الفترة المسائية .

انتفض واقفا وراح يخطو ببطء نحو الباب الخارجى وقد نكس رأسه لأسفل ..

(١٥)

الحـــل فى النوعيـــة

فجأة غرست مخالبى فى نافوخى ٠٠ ياله من صداع يبدو أن عمل اليوم كان مرهقا ٠٠ فلقد امتلأ مكتبى حتى بعد انتهاء وقت العمل بعشرات المستفيدين من الفلاحين الذين وفدوا من قراهم البعيدة طلبا للمساعدة فلا فرق عندهم بين وقت العمل وساعات الراحة للأخصائية ٠٠

أحيانا كان البعض يطرق باب الاستراحة ليلا للسؤال عن ختم فقد من عملية واستمارة معونة شتاء مثلا ٠٠ الخ كانت حالتى تزداد سوءا مع مرور الوقت وترتفع حـدة الصداع رغم الأسبرين الذى تناولته بكثرة ٠٠ ولم أجـد الا أن أعرض نفسى على طبيبة الوحدة الصحية ٠

عندما تراءى لى المبنى الذى تزينه حديقة فى حاجـــة الى تهذيب اعتقدت أننى لست فى طريقى للوحدة الصحية

وخصوصا عندما اخترقت باب الدخول العتيق ·· شعرت لحظتها اننى بداخل اصـــطبل للخيل أو كهف مهجـــور مسكون بالأشباح ·· لقد تعرت الأشجار وتجـــردت من كسائها الاخضر ·· ربما من فعل رياح الشتاء أو عـــدم العناية بها ·· تناثرت الأوراق بطريقة فوضوية هنا وهناك ·· وقد غطاها التراب بالقرب منها الأغنـــام ترعى فى حضن الحشائش التى اختفى معظمها وما بقى منها غدا جافا وذابلا ··

بعض المرضى كانوا ينتظرون فى فناء الوحدة ·· فهذه سيدة نحيفة قد اصفر وجهها ·· ألقت بجسدها المتعب على بعض الحشائش وراحت ترضع طفلها العليل الذى هده·المرض ·· وهذا رجل مسن قد شحب وجهه وبـــدا للناظر كهيكل عظمى ·· كان يمتطى حمارا وتلك فتـــاة صغيرة وقفت تتلوى من المغص ··

كانت الطبيبة مازالت مشغولة فى الكشف ·· قالت بصوت مجهد عندما لمحتنى :

ـ لم يعد امامى سوى حالات قليلة وسوف أتفرغ للحديث معك ·

سألتها وأنا أكافح ألم الصداع :

ـ لماذا يظل المرضى هنا وقد انتهى وقت العمل ؟

ـ مازلت جديدة ولم تدرسى بعد طبيعة العمل هنا ٠٠ ففى الصباح تستقبل المستشفى المرضى للعلاج مقابـــل مبالغ رمزية أى قيمة التذكـــرة وفى نهاية النهـــار يبدأ الكشف فى العيادة الخارجية ٠

ـ سألتنى الطبيبة أن انتظرها فى الاستراحة حتى تنتهى من الكشف على سيدة مسنة يبدو انها تعانى من انيميا اصابنى الذهول عندما وجدت نفسى فى هذا الركن من المبنى الذى لا يقل فى مستواه عن احدى أوكار رواد الموالد ولم أصدق أننى الآن فى استراحة طبيبة الوحدة الصحية ٠٠

سألتها ٠٠ وأنا أمسك رأسى بيدى لتخفف حـــدة الألـــم :

ـ كيف تعيشين بهذا الشكل يا دكتورة ٠٠ ؟

قالت وهى تعيد ادوات الكشف الى مكانها وقد هدها التعب :

ـ لاتشغلى بالك بما هو كائن واعلم انك ستستائين لكن ماذا افعل ؟ أم على وهى عاملة النظافة الوحيدة بالوحدة تجدينها الآن اما فى السوق تبيع مخلفات الذبح لمعاونة زوجها الجزار أو تعمل فى تجفيف البلح الذى جمعته من نخلها ٠

أجبتها بضيق وسأم :

ـ لا أصدق ما أرى ·· فرش السرير غير منظم وأوانى الطعام ملقاة على الأرض وقد تجمدت فيها فضلات الطعام لدرجة أن الذباب لا يفارقها ·· بالاضافة لبعض القمامة التى تتناثر على الأرض · لابد اذا من عقابها ·

لقد مللت من كثرة العقاب ·· خصـــمت منها أياما وجاءتنى تبكى وانذرتها بصفة رسمية ولا فائدة توعدنـى بالاستقالة ولا تنفذ ·

اوقفتنى عن الحديث نوبة الصداع التى عادت بشدة لتؤلمنى ·· سألت الطبيبة على الفور :

ـ ارجوك انقذينى من شدة هذا الألم ··

قالت وهى تعد لى سرير الكشـــف وقد امســـكت بالسماعة :

ـ يبدو انك مرهقة وفى حاجة لأجازة استجمام ··

وبعد فترة صمت سادت بيننا قالت بابتسامة :

ذات صباح لمحت شابا وسيما يجلس معك وقد اندمجتما فى الكلام

سألتها وقد خفت حدة الألم :

ـ هل تعرفيه ؟

بالطبع والده المرحوم الحاج حسن مكاوى من كبار أعيان البلدة بل والمركز كله توفى منذ اعوام قليلة تاركا

ثروة وأرض وعمارات فى المدينة ودوار فى القرية ‥ وقد لحقت به والدته بعد عام من رحيله ولا يوجد معه سوى شقيقة تدرس فى الجامعة وتقيم فى القاهرة حاليا بينما أحمد يقيم بمفرده فى دار كبيرة ويشرف وحده على عشرة أفدنه ‥

ـ يبدو أنك تعرفين عائلته جيدا ‥

اقتربت منى وسألتنى هامسة :

لماذا لا تهتمين به ‥

ـ ربما نشأت بيننا صداقة حميمة ‥

يبدو ان السنارة غمزت ‥

قطع الحديث صوت العامل ‥

ـ حالة كشف خارجية يا دكتورة ٠

تأهبت للانصراف لكن الطبيبة استوقفتنى لاشاركها ‥

ـ ماذا سيقول عنى الفلاحين :

ـ طبيبة تحت التمرين ٠

بينما نغادر باب الوحدة الخارجى استوقفنا بعض المرضى الذين كانوا فى انتظار أدوارهم التفوا حول الطبيبة وارتفعت أصواتهم فى وجهها ‥

ـ حرام يادكتورة تتركينا وتمشى ··

ـ وأنا ابنى أصبح لحم على عظم ··

ـ اغيثيني يا دكتورة ·· المغص سكاكين تمزق فى بطنى ··

صرخت الطبيبة فى وجوههم جميعا وقالت :

ـ أنا فى طريقى لحالة كشف مستعجلة ·· مريضة فى خطر ··

لمحت الطبيبة امرأة تحمل طفلا هزيلا ·· قالت لهـا بعنف قبل ان تغادر المبنى :

ـ عندما كشفت على ابنك من ايام حذرتك من سوء ارضاعك له من ثديك لأنه مصـــاب بنزلة معوية شديدة واخذت العلاج ووعدت بالتنفيذ واطاعة التعليمات لكن مع الأسف عملت « ودن من طين وأخرى من عجين » وانت الآن ترضعيه للمرة الثانية وربما سيحدث ذلك مـــرات عندما تعودين للدار ·

كانت المرأة مازالت مستمرة فى الرضاعة وكان هذا الكلام لا يعنيها فى شىء ·· اقتربت منها الطبيبة اكثر وقالت فى صوت مرتفع :

فلو ساءت حالته المرضية او مات تصبح الطبيبة هى المسئولة ·

شعرت المرأة بالخجل ثم أعادت ثديها الى صدرها وهى تقول فىضيق ٠

ـ يموت « فال الله ولا فالك » اصبره برضعه حتى نعود للدار وأعمل له الأكل ٠٠

لاحقتها الطبيبة بغيظ وقالت :

ـ وعندما يبكى تصبريه بأخرى وغيرها حتى يكف عن البكاء ٠

ألفت السيدة نظرة حادة وانصرفت بلا مبـــالاة ٠٠ وهى تهز رأسها وتمصمص شفتيها علامـــة التعجب ٠٠ وظلت الطبيبة تسير بجوارى صامته ٠٠ شـــاردة ٠٠٠ حائـــرة ٠٠٠

قلت لأخرجها من حالتها :

ـ التوعية الصحية المكثفة هى الحل ٠٠

أجابت بأسى :

ـ لافائدة من الكلام ٠٠ لقد تحجرت عقولهم وفقدوا القدرة على الفهم الصحيح ٠٠

لاحقتها بحماس وقلت :

ـ لابد اذن من تضـــافر كل أجهزة الدولـــة لهذا الغرض ٠٠

ـ معظم الذين يأتون للكشف مرضى بالصدر وذلك نتيجة تعرضهم لنزلات البرد بصفة مستمرة ثم ان معظـــم القرويين يعيشون فى عشش على شاطىء النهر ٠

ذهبت بفكرى للأمس القريب ٠٠ تذكرت حالة لأسرة تعيش فى عزبة على الشاطىء ٠٠ مكونه من سيدتين ورجل هو زوج كلتيهما وبضعة اطفال كانوا يرتدون ملابس خفيفة فى عز البرد ٠ شعرت بالرثاء لحـــالهم ومن ثم سألت السيدتين :

ـ لماذا لا يرتدى الأطفــال مـــلابس ثقيلة فى هذا الشتاء ٠٠ ؟

لقد تعود الأطفال على ذلك ٠

سألت طفلة كانت ترتعد من البرد :

ـ هل أحضر لك فستانا ٠٠ ؟

ـ هزت رأسها علامة الموافقة بينما كانت الأم بالقرب منها تحاول أن تخفى شعورها بالحرج ٠٠

سألتنى الطبيبة لتخرجنى من شرودى :

ـ فيم تفكرين ؟

نعم رأيت بنفسى وتأكدت ٠٠

واصلت الطبيبة الحديث بيأس ٠٠

ومرضى الأنيميا الخبيثة الذين يأتون للكشف وهـــم جلد على عظم ٠٠ لا يأكلون شيئا ذا قيمة رغم ان معظمهم

يملك مواشى وأرضا زراعية وعندما أسأل المريض عن نوع الطعام الذى يأكله يقول ببساطة :

ـ خير ربنا كثير لكننا فى حاجة الى فيتامينات ..

أما مرضى البلهارسيا فرغم أن العلاج متوفر بالعيادة الا أن المريض لا يحضر لتعاطيه لأنه يرغب فى الحصول عليه مرة واحدة واحيانا لا يثق فى الطبيبة ويتعامل مع حكيم القرية .. ذلك الذى يتقمص دور الطبيب ويضـــر بصحة المرضى ونبهت كثيرا لخطورة هذا المرض لدرجة اننى كنت استدعى مريض البلهارسيا فى حجرة الكشف وأشرح له خطورة المرض وضرورة اكتشافه فى وقت مبكر واتخاذ اجراءات العلاج بسرعة والتوجه فورا للعيــادة لكن للأسف يعتقد المريض اننى الجأ لهذا الأسلوب لرغبتى فى النقود وبالفعل حاول أكثر من مــــريض منحى نقودا مقابل حصوله على الدواء ..

ـ لا شىء سوى التوعية المستمرة وضرورة اتبــاع بأحدث الأساليب ..

أجابت الطبيبة بيأس :

ـ فى الحقيقة اشعر بالملل من متاعب هذه المهنة فما الذى سأجنيه أو يعود على بالفائدة حينما أعالج بضعـــة أطفال ينتمون لأسرة فقيرة أو تكاد تكون معدمة .. هذا البائس لا قيمة له فى أسرته التى قد تكون معدمة ثم ماذا

سيقدم للدولة اذا شفى واصبح رجلا ومـــا الدور الذى سيؤديه بين آلاف من البشر ··

اجبتها بدهشة :

ـ لا تنسى ان هذا الطفل فى امكانه ان يقدم الكثير لوطنه فقد يصبح طبيبا أو مهندسا أو فنانا أو حتى فلاحــا يزرع ولو فى أرض الغير ··

ـ ثم كيف تكونين طبيبة وتفكرين بهذا الأسـلوب ·· الطبيبة انسانة أولا ··

قالت بيأس :

ـ مازلت حديثة العهد بالعمـــل فى الريف ومازال تاثير الدراسة فى فكرك اما أنا فقد عشت هذه المعاناه على مدى خمس سنوات ومع الأسف لم أجد أملاً فى شىء بل كلما مرت الأيام كلما ازدادت الحال سوءا ··

اجبتها ببسمة أمل :

ـ لا ينبغى ان تيأسى وعلينا بالصبر والجهد المتواصل حتى نأخذ بأيدى الجهلاء ونخرجهم من سراديب العتمة الى آفـاق النور ··

(١٦)

الحـــــرامى

تركت الطبيبة مع مرضـــاها وأخذت طريقـــى الى الاستراحة بعد النزهة القصيرة التى قمنا بها على شاطىء الترعة وقد ارتاحت نفسى قليلا ·· الجو بارد هذا المساء والمطر بدأ يسقط بينما أبواب المهجرين مغلقة·· صعدت للسكن واغلقت البـــاب ·· فى لمـــح البرق سرى الخوف فى كـــل كيانى ربما نتيجة لانقلاب الجو فجأة ·· ساد صـــمت رهيب ·· انقطع التيار الكهربائى ·· دب الرعب فى نفسى ·· تحسست الطريق فى وحشة العتمة لابحث عن شمعة فى الأشياء المهملة فى المطبخ واشعلتها بصعوبة ·· وبينما كنت جالسة على ضوئها وأنا ارتعد من الخوف شـــعرت بضوضاء تحت الشبابيك المغلقة وانطلقت أصوات عاليـــة كادت أن تخرق آذان الجدران ··

صوت ١ ـ حرامى ·· حرامى ··

صوت ٢ ـ حرامى ؟ الابلة موجودة ··

صوت ٣ ـ لا سافرت ··

صوت ٤ ـ اين هذا الضوء وكيف صعد الحرامى ؟ ·

تملكنى الرعب واحكمت اغلاق باب الشقة لكن الأصوات المزعجة لازالت تتسرب الى أذنى كتيار الهواء البارد العنيف ·· حتى كادت ان تصيبنى بالصمم ·· ومن بين هذه الأصوات انطلق صوت ··

ـ لقد صعد الحرامى من شيش الشباك المكسور ··

همست لنفسى بخوف ··

منك لله يا رئيس الوحدة ·· طلبت النجار أكثر من مرة لاصلاح الشباك المكسور ولكن كنت تعمل ·· ودن من طين وأخرى من عجين ·· بسرعة البرق جريت لحجرتى واغلقت الباب باحكام شديد بعدما تأكدت من وجود حرامى بالاستراحة ·· وقررت الا اغادرها الا بعد أن ينصرف وليأخذ ما يريد ··

نظرت من خلال شيش الشباك المطل على فناء الحجرة واذا بى أجد جمهرة من الفلاحين فى حالة صياح وصراخ ·· ومع مرور الوقت وارتفاع حدة الضوضاء والاصوات المزعجة ازداد عدد الفلاحين وبعد قليل حضر بعض عمال الوحدة المقيمين بالقرية ··

ـ فجاة شعرت بحركة داخل الاستراحة ·· لزمــت الصمت وتسمرت فى مكانى بجوار شيش الشباك بينمـا جسدى ينتفض من الرعب ··

سألت بصوت مرتفع وبخوف :

ـ من بالصالة ؟

اصابتنى الدهشة عندما وجدت أحــد عمال الوحدة المحلية فى صـــالة الاستراحة ثم اتجه بسرعة نحو بـاب الخروج ·· بينما مازالت أصــوات الفلاحين ترتفــع فى صـــراخ ··

قال العامل بخجل :

ـ متأسف ياست هانم ·· اعتقدنا فى وجود حرامى ·· انتهز فرصة انقطاع التيار الكهربائى واقتحم السكن ·

ـ لم أتمالك أعصابى وفى لمح البـــرق فتحت باب الحجرة على مصراعيه وصرختفى وجـــوه المتجمهرين الذين تجمعوا بسرعة فى الصالة بينما عاد التيار ··

ـ هذه جريمة ·· وشىء أغرب من الخيال ·· لا أخلاق بالمرة ··

قالت واحدة من المهجرات :

ـ افتكرناك سافرت

لاحقتها أخرى وقالت :

ـ عندما تنوين الخـــروج المفـــروض أن تعرف ·· وأيضا عندما تعودين لأننا نخاف عليك ولا أمان بالدار ··

قال العامل بخجل :

ـ كم من حوادث ترتكب ليلا وفى الغيطـــان وعلى شاطىء الترعـــة ··

أضافت فلاحة بحـزن :

ـ منها حادثة الصبية التى وجدوها غارقة في الترعة من أسبوع ·· جميلة ولا البدر فى سماه والمصـــيبة ان بطنها كانت منتفخة ··

همست سيدة فى اذنها :

ـ سدى فمك ·· ان الله حليم ستار ··

قالت مهجرة بصوت منخفض :

ـ تخلصوا منها قبل ان تجلب العار ··

صاح فلاح بحماس :

ـ ليست من بلدنا ·· جرفها التيار من بعيد ··

قلت لهم ·· وأنا أعود للاستراحة :

ـ أشكركم على اهتمامكم بى ·· لكننى عدت فى وقت متأخر لأجد كل الأبواب مغلقة ولم أرغب فى ازعاجكم ··

(١٧)

نـــادى الطفـــل

وأنا فى طريقى لمكتب الرئيس لاستطلاع رأيه حـــول امكانية استضافة المدرسات فى استراحة الوحدة · لم أنس أن ألقى نظرة فاحصة على أبناء الحضانة وكان وقت العمل على وشك الانتهاء بينما بعض أوليـــــاء الأمور فى انتظار ابنائهم · فمن عادة الدادة أن تجمع الأطفال الذين سيغادرون الدار مع ذويهم لكنها لم تفعل هذا اليوم انتابنى القلق وشعرت بالرعب خشيت أن يكونوا قد أصيبوا بسوء ·· أرسلت لاستدعائها مع أحد العمال لكنه عاد ليقول :

ــ لا أثر للدادة والأطفال ·

ارتعدت أوصالى من الخوف ودار بخاطـــرى عـــــدة أسئلة ·

ــ الى أيـــن ذهبت بهـــم ·· هل لنزهة خلويـــة على

الطريق الزراعى ٠ ؟ أم صحبتهم لحديقة المركز المجاور للسوق ؟

ــ ربما أخذتهم ليحملوا معهــا بعض المشتريات أم صحبتهم للعمل فى حقلها ٠ فموسم جنى الطماطم بدأ منذ ايام وهذا ليس بغريب عليها ٠٠ فلقد كان بعض الكبار منهم يتخلفون عن طابور الصباح أحيانا واذا سألتها عنهم تقول بخبث :

ــ ذهبوا لمساعدة الأهالى فى الغيط ٠ فالأجر الذى يحصل عليه الطفل فى اليوم لا يقل عن جنيه ٠

شد انتباهى باب نادى الطفل المفتوح على غير العادة ٠ تسرب الى سمعى بعض الأصوات المضطربة وبسرعة البرق توجهت الى هناك ٠ رغم اننى لم اكن أستريح لوجود الأطفال فى النادى فالتراب قد كسا الأرض وامتلأ الجو بالغبار الخانق نتيجة لتيار الهواء المتسرب من السقف العارى ٠٠ وقد نبهت كثيرا بعدم استعمال النادى حتى يتم اصلاحه وكلفت أحد العمال بتعليق لافتة كتب عليها ما يفيد بأنه غير صالح للاستعمال لكن الدادة كانت تعمل ودن من طين وأخرى من عجين » وحذرتها أكثر من مرة من خطورة تواجد الأطفال فى هذا المكان فقد سبق أن سقط بعضهم من فوق المراجيح واصيبوا بجراح ٠ بالاضافة الى اننى مللت الحديث مع الرئيس بشأن الاصلاح وكنت كلما سألته عن

ضرورة تطوير النادى يخلق لى عشرات الحجج • فمرة يدعى بأنه لا يوجد ميزانية واذا وجد فمن الأفضل استغلالها فى تطوير حجرة الألعاب الداخلية وتزويد المكتبة بالجديد من الكتب واخــــرى يوهمنى بأن ما بقــى من ميزانية تم استغلاله فى تطوير الوجبة الغذائية واشعر بالأسى عندما ألقى نظرة فاحصة على غذاء الاطفال الذى لا يـــزيد عن الوجبة المكونة من المعونــة الامريكية • برغـــل وزيت • حتى علب الزيت الذى يطهى به البرغل كانت تختفى مــن مخزن النادى بمجرد ورودها وفجأة أعثر عليها فارغـــة فى احدى الدواليب المهملة •

واذا سألت المدير عن كيفية تحسين الوجبة يرد فى برود ولا مبالاة :

ــ فلوسهم قليلة وأرجو ألا تشغلى بالك بهم •• انهم أبناء فلاحين •• تعودوا على أكل المش والجعضيض ولـم يعتادوا على اكل اولاد الذوات •

واذا سألته عن كيفية استغلال فلوسهم وهى حصـيلة الاشتراكات التى يدفعها الأبناء كل سنة أى بمعدل خمسين قرشا للطفل بالاضافة لاعانة الوزارة السنوية •• لايجد الا ان ينسحب فى صمت وقد حفر الغضب على وجهه بعض التجاعيد وتطاير الشرر من عينيه ويقول •• لاشك أنـــك صعبة للغاية •• كونى مرنة ولا داعى للشغب •

كان ذلك مازال يؤرق فكرى وانا فى طريقى للنادى وعندما اقتربت من عتبة الباب هالنى ما رأيت كان منظرا مقززا · تمنيت لحظتها لو كنت المسئولة لفصلت الدادة على الفـور ·

كانت تجلس أمام الابناء بملابسها السوداء الرثة والتى لاتستعملها الا اثناء العمل فى الغيط وقد امتلأ حجرهـــا ببعض الأطعمة الريفية ·· كانت تأكلها فى نهم وبطريقة هجمية ·· التف حولها الأطفال كأنهم فى ساحة لمشاهدة احدى الحواة وقد امتدت لها اياديهم كمن يرغب فى لقمة تصبر اليتيم وتشبع المسكين ·· يستجدون بعض الطعام ··

هذا خطأ ولا يليق بفلاحة تعرف الأصول وموظفـــة أيضـــا ·

انتفضت على الفور واقفة وقد تناثر بقايا الطعام على الأرض وقالت بغضب وانفعال ··

حتى اللقمة تحرم علينا ··

أجبتها وانا أتمالك أعصابى :

ـ تملكين دارا وفى امكانك تناول الطعـــام فيهـــا وبالطريقة التى تعجبك ··

قالت بغيظ وهى تنفض ملابسها مما علق من طعام :

ـ من طلعة النهار ياست ليلى لم يدخل معدتى شىء

بالاضافة الى انى اشقى فى الحضانة والغيط والدار من حقى . أرم جسمى بلقمة ·· أصبر بها معدتى حتى أعود للدار ··

ــ فى امكانك اذا شعرت بالجوع تطلبى اذن وتأكلى فى أى مكان بعيد عن أعين الاطفال ··

ــ انهم أشقياء ·· يضربون بعضهم ويبكون ويتعبوننى ·· فكرت أن أخرج بهم فى حوش الوحدة ليشموا بعض الهـواء ··

قطع الحديث أحد العمال وقال بلهجة سريعة :

ــ أولياء الأمور فى الانتظار ويسبون فى النادى .

سألته على الفور :

ــ ان كنت تعرف الأبناء فاجمعهم بسرعة وسلمهـــم لذويهم ··

فى لحظات عاد بالأطفال لاولياء الامور ·· وقال قبل أن ينصرف :

ــ بعضهم لا وجود له بالدار ··

ارتفعت درجة حرارة القلق فى نفسى وسألت الدادة :

ــ أين باقى الأبناء يا دادة حميدة ··

أجابت بخبث :

ـ ربما فى دورة المياه أو فى الغيط ٠

ـ أى دورة واى غيط فى هذا الوقت ؟

ـ أقصد منحل العمدة ياست ليلى ٠٠ فهو قريب من هنا ٠٠ هم يحبون اللعب والفرجة على المنحل ٠

ـ ابحثى عنهم بسرعة واجمعيهم فى فصلهم حتى ياتى أولياء الأمور لاستلامهم أو وصليهم بنفسك الى أهاليهم انصرفت وهى تقول فى غضب :

ـ غيطى افضل من العذاب الذى أعيش فيه مقابل قروش من وظيفة الحكومة التى تكدر حياتى ٠٠

سألتها بدهشة :

ـ هل ستقابلين أولياء الأمور بملابس الغيط ٠٠ أين زى العمل أم نسيت انك عاملة فى نادى الطفل ؟ المدير لايسمح لنا به الا فى المناسبات كيوم العمل الاجتماعى أو زيارة مسئول من الوزارة والاطفال مثلنا ٠ أنت جديدة يا ست ليلى ولا تعرفين التعليمات ٠٠

عادت ذاكرتى للأمس القريب وهمست لنفسى :

ـ منذ وقعت عينى عليهم لأول مرة وهم لا يرتدون سوى الملابس المختلفة الألوان والأشكال ٠٠

فهذا ياتى بجلباب وطاقية وأخرى بفســتان وثــالث يرتدى بيجامة ٠

فجأة ساد الجو هرج ومرج ٠٠ اخرجنا مما نحن فيه أحد الأطفال الذى ضرب زميله بحجر فسال منه الدم وآخر حاول أن يصعد للمرجيحة المكســورة ليلهو فكــادت ان تسقط به لولا تدخلى وثالث جلس على التراب ٠٠ يصنع بيوتا من الطين وقد ملأ قارورة بالمياه وراح يصب منهــا فى بعض الحفر ٠٠ والرابع كان يبكى فى ركن ما بعيدا عن الأطفال ٠

سألت الدادة ان تصحبهم لقاعة المكتبة ليشغلوا مابقى من وقت فى القراءة حتى لو استعملوا القصص القديمة التى عفى عليها الزمن فهى افضل مما يفعلونه :

تسمرت فى مكانها وقالت فى خوف :

ـ لا مانع من جمعهم لكن داخل المكتبة لا ٠٠ هذه اوامر الرئيس ٠٠ يخشى أن يكسروا اللعب او يقطعوا المجلات لأنهم أولاد فلاحين وتعودوا على اللعب فى الجرن او الساحة والجلوس على المصاطب ٠٠ ولذلك امر سمعان بيه بعدم استعمال المكتبة الا اذا وجدت أمينة لها ٠٠

همست لنفسى بكدر :

ـ اذا كانت اللعب التى تزين المكتبة مكسورة وقديمة ومعظمها من الحيوانات والطيور البلاستيك المتآكلة بعضها

مكعبات ويبدو انها كانت مغطاة بالورق المرقم ولكن تعرت بفعل الزمن وتحولت لقطع خشبية مهملة لا ترمز . لشيء .

اخرجنى من شرودى صوت الدادةوقدعادتوهىترتدى فستانا مزركشا بالورد وقد عصبت رأسها بمنديل بترتر :

ـ اتمنى أن تكونى راضية عنى ..

على اية حال .. هذا افضل مما كان رغم أنـه ليس المزى الرسمى :

ـ ملابس الحضانة فى الدولاب والمفتاح مع المدير ..

أين هو الآن ؟

ـ فى دوار العمدة ..

سألتنى قبل ان نغادر الوحدة للبحث عن الأطفال .

هل تطلبين شيئا ياست ليلى ؟

ـ تذكرت امينة المكتبة التى لم ارها منذ بضعة شهور حيث التقيت بها فى الأيام الأولى لاستلامى العمل ثم اختفت وقلت لها :

ـ اين بهية أمينة المكتبة ..

اجابت وهى تمصمص شفتيها علام التعجب ؟

ـ الله أعلم .. يمكن أخذت اجازة مرضية أو تسعى لنقلها أو اتجوزت ..

قلت لها بتعجب :

ـ الشيء الغريب انها قضت مدة طويلة معنا ولم تتخلف ليوم واحد وفجأة اختفت ..

تذكرت آخر لقاء بيننا (كانت لحظتها تبدو حزينة وعندما سألتها عن السبب اجابت والدموع في عينيها . أمضيت فى عملى كأمينة للمكتبة ما يقرب من سنة .. عانيت خلالها من سوء معاملة الرئيس وعدم استجابته لأى طلب لصالح المكتبة علما باننى حديثة التخرج وكلى طموح لاثبات وجودى كموظفة وعندما جاءت الميزانية الخاصة بالنادى فكرت فى شراء كتب جديدة تتناسب مع مستوى الأبناء لكن مع الأسف كنت كلما طلبت منه شيئا اى الرئيس يصرخ فى وجهى ويقول :

ـ الأولاد ليسوا فى حاجة لطلباتك هذه .. ولا تنسى يا بهية انهم ابناء فلاحين .. لا يعجبهم الا الحصان المصنوع من الطين والعروسة المكونة من الجلة .. وتواصل بهية بمرارة ..

هذا بالاضافة الى اننى لا احصل على الأجر المقرر لى لأنه رفض تثبيتى حتى لا أصبح عبئا على الميزانية ويصبح فى امكانه الاستغناء عن خدماتى فى أى لحظة اذا خالفت تعليماته .

قطعت الدادة حديث الذكريات وقالت :

ـ لقد تعبنا ولا فائدة ·· البخل فى دمه رغم الثروة التى يتمتع بها من أرض وديار وحدائق ·· فجأة أقبل العامل صابر مهرولا وقال بقلق :

ـ بعض أولياء الأمور مازالوا فى انتظار الأبنـــاء واحوالهم لاحول لها ولا قوة ·

صرخت فى وجه الدادة وصابر وعامل آخر ·

ـ اخرجوا الابناء من حوش القرافة ·· مشيرة للنادى واحضروهم لمعرفة عدد المتخلفين ·· بعد لحظات عـــاد صابر ليقول :

ـ لايوجد الا ابن واحد من ابناء الآباء المنتظرين وباق ولد وبنت لا أثر لهما ·· لافى الفناء ولا فى الدار كلها ··

دب الخوف فى نفسى وسألت الدادة على الفور :

ـ ابحثى مع صابر عنهما ولا تعود الا بصحبتهما والا سنتعرض للأذى جميعا ··

اخشى ان يكونا قد غادرا باب الروضة وتاهـــا فى حارات القرية أو سقط أحدهما فى الترعة وداست الآخـــر جاموسة وخصوصا ان الطريق الزراعى ملىء بالعربات وكثير المطبات ··

قالت الدادة بهدوء ولا مبالاة :

ـ لا تخافى الأولاد من البلد ويعرفون كل خرم أبـرة فيها ..

هؤلاء امانة ولابد من تسليمها لأولياء الأمور دون أن يمسهم اى ضرر .

غادرت الدادة المكان ومعها صابر وبصحبتها ما بقى من الأطفال .

لحقت بهما وقلت :

ـ ابحثا عن الطفلين فى كل مكان .. فى الغيط وعند الجيران ووصلا كلا الى داره وتسليمه لولى امره .

استدعيت اولياء الأمور المنتظرين بفارغ الصبر لمكتبى سالا فى صوت واحد بقلق :

كل الأطفال عادوا لاهاليهم ولم يتغيب سوى ابنائنا :

ـ لم اكن اقل منهما قلقا لأننى المسئولة الوحيدة هنا .. فالمدير مازال لم يات بعد .. فلو حدث للطفلين اى سوء كأن يغرقا فى الترعة مثلا .. ماذا سيكون موقفى ؟ الأطفال هنا كثيروا الاستحمام فى الترع أو يأكل أحدهما ذئب جائع فى لحظة الظهيرة .. وتدوس الآخر عربة طائشة من تلك التى تمر سريعا على الطريق الزراعى .. لا شك أننى لـن أفلت من العقاب .. فربما سيكون هناك بلاغ ضدى فى النهاية أو شكوى للوزارة ..

كادت رأسى ان تنفجر من كثـرة التفكير وشـعرت بالدوار ‥ اخرجنى من شرودى صوت الأبوين الذى كاد ان يهز الجدران ‥

اين الطفلان يا حضرة المشرفة ؟

اجبت وأنا أحاول ان أتمالك اعصابى ‥

بالتأكيد سيعودان بعد قليل ‥ فالأطفال يحبون اللعب دائما ‥

رد احدهما بأسى ‥

حذرنى بعض الفلاحين من هذا النادى حيث تسـود الفوضى ولا يجد فيها الاطفال الرعاية اللازمة لكننى صممت على الحاقه وخصوصا عندما بلغنا ان بالحضانة مشرفة جديدة ومتحمسة للعمل ٠

لاحقه الآخر وقال بانفعال ‥

ـ قدمت لابنى هنا والدته واقنعتنى بأن النادى تغير عندما دخله دم جديد ٠

قطع الحديث صابر الذى جاء سريعا وقد تغير لونـه وقال :

ـ بحثت عنهما فى كل حارات القرية حتى بعض الديار دخلتها لكن لم أجد لهما أى أثر ‥ مريت على شيخ الزاوية ليعلن عنهما فى الميكريفون ٠

ما كاد العامل ينهى كلامه حتى صرخ الرجـلان فى صـــوت واحد :

ـ هذا يعنى ضياع الطفلين وليس أمامنا الا أن نبلغ البوليس ··

ازدادت حدة القلق فى نفسى ودار فى ذهنى :

ـ لاشك انهما سيتهمانى بالفوضى وعدم القدرة على تحمل المسئولية فى حالة ضياع الأطفال وسينشر هذا فى كل انحاء القرية بل القرى المجاورة وبالتالى لن يتعامـل الأهالى جميعا مع النادى هذا بالاضـافة للعقـــاب الذى سأتعرض له من قبل المسئولين ·· من الأفضل اذن أقـــدم استقالتى وأعود للقاهرة قبل ان تندلع العاصفة ·· لكن ذلك يعتبر هروبا ··

قطع حديثى مع نفسى أحد الرجلين وقال :

ـ عندها حق زوجة عمى العمدة ·· حذرتنى اكثر من مرة من الفوضى التى تملأ النادى ··

لاحقه الآخر وقال بمرارة ··

ـ لو كنت سرحت ابنى فى الغيط كأولاد الفلاحين كنت عرفت طريقه ·· وماذا يفعل ؟! تذكرت كلام زوجة العمدة عندما قالت لى اثناء زيارتى لها :

ـ كل مشروعات الوحدة وهمية ·· لا اساس لها من الصحح ·· الخ) ·

ربما كلامها فيه كثير من الصحح ·· فهى مقيمة وزوجة رجل مسئول فى القرية وتعلم كل صغيرة وكبيرة فيها ·

مازال كلام الرجلين يرن فى اذنى كالطبل وتمنيت لو تحتوينى طاقية الاخفاء حتى لا تجرح كرامتى وأتعرض لما لا يحمد عقباه ··

فجأة انتفض الرجلان فى حالة ذهول وغادرا بـــاب الوحدة فى حالة ذهول وغضب ·· لحقت بهما وحاولت تهدئتهما وقلت :

ـ علينا بالصبر حتى تعود الدادة فربما تحمل اخبارا سارة ·· ولكنهما واصلا السير والشرر يتطاير من عين كليهما ··

تنفست الصعداء وبدا القلق ينسحب من نفسى رويدا عندما لمحت الدادة من بعيد وقد امسكت بالطفلين ·

وبسرعة البرق لحقت بها وسألتها بلهفة :

ـ أين عثرت عليهما ؟

اجابت بهدوء وخجل :

ـ فى غيط الطماطم ·· يعملان مع أولاد الفلاحين فى جنى المحصول ··

قلت لها ساخرة :

ـ فى غيطك طبعا ؟؟ !

قالت فى جرأة وهى تضحك :

ـ غيطى أمان ·· وأفضل من غيط الجيران ··

(١٨)

الثعبـــــان

غريب هذا المساء • لم يطرق النوم عينى حتى وقت متأخر من الليل • ربما من ضغط العمل ومشاكله لدرجـة أننى كنت استغل الجــزء الكبير من انجازه بســكنى الخاص كمغتربة فى استراحة الموظفات ورغــم اننى كنت أتعرض لأشياء غريبة كسوء فهم بعض الجيران الذين يقيمون فى الدور الأرضى للمبنى • وهم من المهاجرين فاذاماغادرت السكن مثلا للسفر والمبيت خارجه يحرضون بعض العمال للتسلل ليلا بحجة وجود حرامى او مــا شــابه ذلك فى الاستراحة • ولقد حدث ذلك فى منتصف احدى الليالى لدرجة أننى وجدت نفسى وجها لوجه أمام العامل الذى قفز من النافذة المطلة على حجرة نومى وتسبب فى فزعى وحمدت الله أننى استيقظت فى التو واللحظة •

سبب هذا الحادث توترا فى أعصابى وقبل الفجر بقليل جذب النوم عينى • انتابتنى رؤية مخيفة انتفض جسـدى على أثرها فزعا • ثعبان أسود كبير الحجم هاجمنى وحاول أن يلدغنى لكننى تمالكت أعصابى وتجاسرت • وفى لمـح البرق خطفت عصا غليظة وضربته على أم رأسه فسـقط صريعا فى الحال وهو يتلوى من الألم • وعاودت الضرب مرات حتى غدا جثة هامدة لا حراك فيها • حملتـه على العصا وتوجهت الى سكن رئيس الوحدة الريفية التى أعمل بها والذى يبعد بخطوات قليلة عن استراحة المغتربات حيث الباب مفتوحا • قلت له بشجاعة وانا أقرب العصـا من وجهـه :

ـ انظر اننى قوية • لا أخاف الثعابين •

تأملنى بدهشة ولم ينطق بكلمة • اقتربت منه أكثـر وسألته :

ـ لابد من التخلص من الثعابين التى فى خزان المياه •

أجاب بدهاء :

ـ فى القريب العاجل •

همست لنفسى بغيظ :

ـ نعلم جميعا أن سمعه ثقيـل وكثيرا ما يطلب من متحدثيه أن يرفعوا اصواتهم • لماذا أجاب بسرعة ؟ لاشك أنه يتصنع الصـم •

واصلت الحديث معه بخوف :

ـ الأفضل أن نتخلص من الخزان نفسه لأن وجوده فارغا بصفة دائمة يجعله ماوى للحشرات ٠

وعدنى بالتنفيذ ثم انصرف :

ـ كان لهذه الرؤية وقع سيء على نفسى لدرجة أنها هزتنى بعنف من الأعماق ٠ نهضت بسرعة دون مواصلة النوم ٠

حاولت أن أضيء الحجرة لكن التيار الكهربائى انقطع امتلأت نفسى بالرعب ٠ بحثت عن شمعة فى متاهة العتمة فلم اجد ٠ حاولت مرة اخرى ٠ تسسربت الطمأنينة الى نفسى عندما لامست أناملى جـزءا منها ٠ كان على ان أتحسس طريقى الى المطبـخ للبحث عن عود ثقاب بينما ترتعد مفاصلى من شدة الخوف ٠ حاولت أن اخطو ببطء وبهدوء حتى لا اصطدم بالكهن وبقايا الأثاث الغير صالح للاستعمال والذى تناثر هنا وهناك ٠ وقد آثر الرئيس أن يحفظها فى الاستراحة ٠ كنت اتحسس الأشياء باللمس مرة وبالحدس مرة حتى وصلت الى المطبخ بينما أتلو بعض آيات القرآن وخصوصا آية الكرسى التى تفيد فى مثل هذه الحالات ٠ أضأت الشمعة ٠ لمست الألم الذى فى ساقى حيث مازالت تؤلمنى ٠ اعتقدت أن سببه هو اصـطدامى ببعض الأشياء دون قصد واختلطت فى نفسى الأمور لكننى

عندما وجدت آثار لدغ عبارة عن بقعة زرقاء تسرب الخوف الى نفسى واعتقدت ان الثعبان ربما لدغنى قبل ان يموت ٠ لكن اذا كان الأمر كذلك فحتما سأموت بعد قليل حتى لـو جريت الى الوحدة الصحية للقرية ٠ فهى على بعد خطوات قليلة لكن الوقت متأخر وقد لا أجد أحدا يفتـح الباب أو حتى يسمعنى ٠

بالاضافة ان العيادة تخلو من الامصال واذا وجد القليل منها فهو فاسد ٠ هذا ما اكتشفته من خلال زيارتى للطبيبة اكثر من مرة ٠ هنا أدركت ان موتى حقيقة لكن اذا لم يكن الألم نتيجة للدغ الثعبان فماذا يكون سببه وخصوصا أنه ترك أثرا ٠

تذكرت أمى عندما كانت تقول :

ــ ان البقع الزرقاء فى الجسد غالبا تكون نتيجة لفعل الشياطين والجان والأشباح ويصاب بهـا على وجـه الخصوص هؤلاء الذين ينامون فى الظلام ٠ ولذلك عندما كان التيار الكهربائى ينقطع كانت توقد لمبة جاز ونحن صغار وتضع (وناسة) بصفة دائمة موقدة فى دورة المياه حتى مطلع الصباح بالاضافة الى أنها كانت تطلـق البخور من وقت لآخر وخصوصا اثناء صلاة الجمعة وكانت دائمـا تحذرنا من خطورة النوم فى الظلام أو السير بخطى قوية على الأرض ٠ والقاء الاشياء بعنف وتكسيرها ٠ والصراخ

فى الحمام . وتذكرنا بحالة قريبة لنا . مريضة نفسيا . بسبب القائها وابور الجاز امام دورة المياه وهو موقـد وبعنف وذلك اثر شجار دار بينها وبين شقيقتها الصغرى . ورغم بذل المحاولات فى علاجها وحجزهافىمصحةنفسيةأكثر من مرة الا أنها مازالت فى حالة سيئة وسبب ذلك أن الأرض التى نعيش عليها يسكنها ناس من جنس آخر ربما الجـان أو العفاريت أو ما شابه ذلك فقد يسقط الشىء على رأس أحدهم فتنقلب الأرض رأسـا على عقـب ويفكرون فى ايذاء الفاعل . وكانت أمى تحذرنا ايضا من أضرار القاء المياه الساخنة على الأرض وخصوصا فى الحمـام حتى لا تؤذى هؤلاء ولابد من تبريدها أولا واذا حدث وأخطأ أحدنا فتسرع بنثر ماء الورد فى نفس المكان . وقد حدث ان أطل ثعبان برأسه من شباك المطبخ المطل على حجرة نوم والدتى اثر القاء مياه ساخنة فى حوض المطبخ بطريقة عفوية من أخى الصغير . لم تهدأ أمى فى هذا اليوم وافهمتنا جميعا أنه ليس ثعبانا ولكنه من فعل الجان وربما يهددنا بالأذى وقد يلدغ أحدنا بالفعل . أصابنا الرعب جميعا وراحت أمى تبحث عن أحد الحواة الى أن ساعدها بعض الجيران فى حارتنا وعندما حضر ظل يقرأ بعض التعاويذ حتى أخرج الثعبان مقابل بضعة جنيهات كنا فى أمس الحاجة اليها . وكانت قد ادخرتها من مصروف البيت ورغم ان الحـاوى

اقنعها بأن الذى امسك به ثعبانا حقيقيا الا أنها ظلت تعتقد أنه من فعل الجان والشياطين ·

ولتجنب شر هؤلاء كانت دائما تهتم بنظافـة الأرض وترش البلاط بماء مذاب فيه بعض الاعشاب التى تفسـد أعمال الشياطين والسحر منها · عرق الحـلاوة وبذر الرجلة ، وتذوب فى أكواب مملوءة بالماء نوعا آخر يشبه العرقسوس الجاف ويسمى · سفوف الأصول · حتى يزول الخوف الذى ينتاب الواحدة منا فى مثل هذه الحالات واذا صرخت واحدة منا فى الحمام ليلا أو وقعت على الأرض أو عتبة الحمام تسرع باحضار ماء الورد وتنثره على نفس المكان الذى حدثت فيه الواقعة ·

ان الحديث فى هذا المجال يطول شرحه ولذلك توقفت وعدت أفكر فى مشكلة خزان المياه الكائن فوق حجرة نومى ومازلت أشعر بالألم فى ساقى واتحسس البقعة الزرقاء التى ربما تكون من فعل الجان أو الشيطان · دفعنى فضولى وقلقى الى البحث عن حقيقة الثعابين التى تقيم فى الخزان وكالعادة · لم أنعم بالنوم بل ازداد غليان الخوف فى نفسى وبقيت ساهرة حتى مطلع الفجر · وفى الصباح توجهت لمكتب رئيس الوحدة لاستطلاع رأيه حول كيفية احيـاء المشروعات المعطلة واعادة فتح مسرح القرية الذى استغل مكانه حاليا وأصبح مخزنا للكهن · وفى نهـاية الحديث

الذى لم يسفر عن أية نتيجة تعود على القرية بالفائدة قال محذرا :

ـ خذى بالك من الخزان الكائن فوق سطح الاستراحة التى تقيمين فيها ٠

ماذا تعنى بالضبط ؟

أجاب بخبث وهو يتصنع الصمم ويشـــير لى ما يفيد باعادة السؤال ٠

ـ لقد امتلأ الخزان بالثعابين وكل عام يتجمع عمـال الوحدة ويشعلون فيه الحريق بينما يمسك كل منهم عصــا غليظة حتى لا يهرب أحد الثعابين ويـؤذى الســكان أو أطفال الحضانة مثلا ٠

منذ تلك اللحظة أصابنى الأرق وخصوصا عندما لمحت آثار حريق بالقرب من الخزان وجزء منه ٠٠ ولم اتمكن من النوم بشكل طبيعى بالاضافة الى شريان الرعب الذى ظـل يتدفق فى جسدى بصفة دائمة صباحا ومساء لدرجة اننى كنت دائما اغلق كل شبابيك السكن قبل النوم ومعظم وقت النهار وخصوصا عندما أكون خارج الاســتراحة وكنت استغرق وقتا طويلا فى البحث عن الشقوق واكتم نفسها بالكهن لكننى لم أستسلم للخوف وتوقعت ان حكاية الخزان هذه ربما تكون من صنع خياله لبث الرعب فى نفسى ومن

ثم كراهيتى للعمل هنا والسعى لمغادرة المكان فى اقرب فرصة حتى يرتاح من الحاحى المستمر فى احياء المشروعات الميتة واصلاح ما افسدته ايادى الخونة ٠

غادرت مكتبه الذى دائما يغلقه على نفسه ويظل بالساعات مع قطع الاثاث الفخمة التى تحاصره من كل مكان واستدعيت واحدة من المهجرات اللواتى يقمن فى سكن الوحدة ووقع اختيارى على جمالات التى تعرف كل صغيرة بدائرة الوحدة سألتها ان تصعد الى الخزان بنفسها وتصحبنى معها لأرى بنفسى ٠ ترددت فى البداية خوفا من عقاب الرئيس وحاشيته ولكنها اضطرت لتلبية رغبتى أمام الحاحى المستمر لها حتى تعود لى حالة الاستقرار النفسى ٠

وقفت خائفة بجوارها عندما اصبحنا وجها لوجه أمام الخزان بينما القت نظرة فاحصة وسريعة من خلال فتحة كانت بأعلاه وقالت بهدوء :

ــ انظرى يا ابلة ٠ وتأملى ٠ لايوجد ثعابين ولا حتى صراصير ٠

سألتها بدهشة وانا اشير الى اثار الحريق :

ــ لكن ما سبب هذا ؟

ــ احيانا يسهر بعض العمال هنا على السطح وبجوار الخزان ٠ يشعلون اعواد الحطب الجافة للتدفئة وشوى الذرة الخضراء ٠

عدت الى مكتبى وأنا اشعر بشىء من الهدوء النفسى وفكرت فى نسيان ما مر بى لكننى شعرت برتابة الأشياء من حولى ومن ثم فكرت فى تغيير وضع مكتبى فى تلك الحجرة الصغيرة والتى لا تسع سواه بالاضافة الى دولاب صغير حفظت فيه سجلات وملفات المستفيدين . استدعيت اكبر العمال سنا وهو رجل طيب لينفذ لى ما عزمت عليه وبالتالى يصبح نظرى فى اتجاه الشباك الوحيد الذى يطل على الطريق الزراعى وحتى أرى القادمين الى الوحدة من المستفيدين .

قال العامل قبل مغادرة المكتب :

– احترسى من الكلاب يا ابنتى .

ماذا تقصد ؟

– احيانا يلبس الانسان ثوب الكلب ويصبح مسعورا ويعض وقد تكون عضته سامة .

ماذا فعلت لكى يفكر البعض فى ايذائى ؟

– لأنك صاحبة حق وتدافعين دائما عن المظلومين .

فجأة وبعدما ابتعد قليلا . شعرت بحركة غير عادية بجوار قدمى . شيئا ما قد لمسها . القيت نظرة خاطفة ثم صرخت على الفور :

– ثعبان . ثعبان

تجمع حولى عمال الوحدة على الفور وبعض الموظفين وبسرعة البرق ضغط أحدهم بحذائه السميك فمات على الفور حمله بيده ثم ألقى به بعيدا · الشيء الغريب والذى أثار دهشتى ان لون هذا الثعبان أسود نفس شكل ولون الذى رأيته فى الحلم والفرق هو الحجم فهذا رفيع بينما الذى هاجمنى كبير الحجم وغليظ بعد لحظات كانت جمالات أمامى وهى تحمل وعاء من الفخار بداخله سائل وتسألنى أن أشربه على الفور حتى يزول الخوف الذى تملكنى ··

قال عم على العامل المسن وهو يربت على كتفى :

ـ اشربى هذه (طاسة الطربة) مذاب فيها عسل أسود وخميرة وهى تفيد فى مثل هذه الحالات · بدات أشعر ببعض الراحة والهدوء وخصوصا بعد ما شربت كل ما فى الوعاء لكن الشيء الذى حيرنى · لماذا دخل الثعبان مكتبى علما بأن هناك عشرات المكاتب من حولى وهى تخص الوحدة الاجتماعية أو المحلية ولم يحدث ان وجد أحد من الموظفين ثعبانا منذ قدومى للعمل هنا أى منذ بضعة شهور ·

قال العامل غريب بخبث وهو من حاشية الرئيس :

ـ هناك عشرات الثعابين فى الشقوق التى أمامك فى تلك الأرض الخاوية ·

ـ عاد الرعب يسرى فى جسدى مرة أخرى وخصوصا بعد ما انفض الجميع · ألقيت بجسدى المرهق على المقعد

واسندت رأسى بيدى التى كانت ترتعــــد ورحت فى تفكير عميق • افقت على صوت طبيبة الوحــــدة حيث كانت تمر سائلتها على الفور بعد ما القيت تحية الصباح وأنا أحاول النهوض بصعوبة •

ـ أعطنى بعض المهدئات •

قالت وهى تتحسس النبض :

ـ أنت فى حاجة فقط لنزهــة خلويـة فى أحضــــان الطبيعة •

انتفضت مذعورة عندما لمحت أحد أطفال الحضانة قــد خرج مسرعا ووقف بجوار أحد الشقوق الملتصقة بالباب كان يبحث عن شىء ما • جريت بسرعة لأبعده عن مصـــدر الخطـر •

(١٩)

الحـــــريق

ترددت بعض الاشاعات بأن المستفيدين الذين يطلبون مساعدات ليسوا فى حاجة اليها لأنهم يتكسبون من التجارة فى الطيور والخضروات ولذلك قررت بحث الحالات على الطبيعة ٠

كانت أول زيارة فى هذا الصباح لسيدة تعول بضـــعة أطفال بعد ما توفى زوجها ٠ تقع دارها على بعد امتار قليلة من الوحدة الاجتماعية ٠٠ وبينما أسرع الخطى فى الطريق الموصل اليها ٠٠ ذلك المليء بالحفر وأكوام السباخ تسرب الى اذنى صوت أنين عندما اقتربت من مصدره اذا بى وجها لوجه بامرأة فى الأربعين من عمرها ٠٠ كانت تبكى بعنـف وتجفف دموعها بطرف طرحتها التى كساها التراب وغطى أيضا باقى ملابسها السوداء ٠

قالت بأسى وهى تعدو نحوى :

ـ انقذينى ياست ليلى أنا يتيمة ومسئولة عن خمسة أولاد ·

اخرجت من جيب سروالها السحرى دفترا صغيرا وواصلت الحديث ·

ـ اخذوا كل فلوسى واعطونى القليل ·

ربت على كتفها وجذبتها من يدها وأجلستها بجوارى على بعض الحشائش المزروعة على شاطىء الترعة وسألتها

ـ احكى لى بهدوء عن سبب حزنك ·

سحبت طرف طرحتها وراحت تجفف ما بقى من دموع سقطت غزيرة تاركة مكانها بلون الدم وقالت :

ـ أنا من قرية بهبيت واملك من حطام الدنيا قيراطا وجاموسة وخمس أولاد أكبرهم فى الثانية عشرة وتعيش معى أم زوجى بعد ما توفى ابو الاولاد نتيجة لاصابته بطلق نارى طائش فى فرح ابن عمه ·· مرت السنون وأنا راضية بحالى ·· أكافح بنفسى من أجل لقمة العيش ·· أزرع الأرض وأسرح بالجاموسة التى هى قوتنا الوحيد ورفضت كل الذين تقدموا للزواج منى ·· فضلت ان أعيش لتربية أولادى وكل الناس يشهدون بأنى طيبة وعمرى ما شكوت أحدا لكن الحقود ناره قوية وقلبه مجرد من الرحمة ··

فى ذات الأيام حدثت الكارثة ·· صمتت قليلا وغرقت فى بحيرة من الدموع لدرجة ان البلـل كاد ان يغـرق كل طرحتها فجذبت طرف جلبابها وراحت تجفف بعض ·· الدمـوع ··

سألتها بهدوء :

ـ كفى بكاء واحكى لى عما حدث فربما أتمكن من مساعدتك ··

ـ اشتعلت النار فى أمى والغيط والجاموسة ·

ـ ثم ارتعد جسدها ولم تستطع ايقاف نزيف البكاء وخصوصا عندما وصلت للكلمـة الأخيرة ·· بشـكل اقشعر له بـدنى وعلى الفور فتحت حقيبتى ونثـرت على وجهها بعض العطر ·· هدأت قليلا ثم واصلت الحديث وهى تتنهد بصعوبة ·

ـ ماتت أم زوجى والجاموسة وأكلت النار كل شىء حتى عيدان الحطب وكنا نستعد لجنى المحصول ··

سألتها بلهفة :

ـ والأولاد ماذا جرى لهم ؟

ـ الحمد لله ربنا حماهم ففى اليوم المشئوم تركتهم فى الدار لا لسبب ولكن ربنا الهمنى وسحبت الجاموسـة في الصباح متجهة للغيط حتى ابنى الرضيع تركته يغط

فى النوم ·· سألتنى حماتى ان اصحبها معى لتطل على القطن لكنى رفضت لتبقى مع الأولاد لكنها أصرت بحجة الاطمئنان على الأرض بنفسها تركتها هناك ساعة الظهر وعدت للدار لاحضار الغـــداء والأولاد ·· لكن عندما عدت ·· صمتت قليلا ثم انفجرت فى البكاء ··

قلت لها مهدئة :

ـ نفذ أمر الله ··

واصلت بمرارة :

ـ كل شىء أصبح ترابا ·· بعض الناس الطيبين صحبونى للمركز لعمل محضر بالحادث حتى يصرف لى مساعدة كوارث من الشئون الاجتماعية ··

ناولتنى الدفتر وكانت لاتزال ممسكة به وقالت :

ـ اتفضلى يا ست ليلى تصفحيه ·· ستجدين الظلم نفسه ··

شد انتباهى جملة مثيرة به محتواها ··

(يصرف للسيدة عدلات مساعدة نكبة تقدر بثلاثة مـــائة جنيــه)

همست لنفسى بدهشة :

ـ خسائر تقدر بألف جنيه على الأقل يصرف لها هذا المبلغ فقط ··

ثم كيف يسمحون لنفسهم بالتصرف هكذا ·· فى غياب الاخصائية ·· المفروض أن أقوم بنفسى باجراء البحث الاجتماعى واشارك فى المعاينة وتقدير الخسائر ·· مجرد أيام قليلة اقضيها فى القاهرة يحدث فيها كل ذلك وكأنهم انتهزوا فرصة غيابى وتصرفوا كما يحلو لهم ··

سألت السيدة بغيظ :

ـ هل صرفت المبلغ كله ·· ؟

اجابت بمرارة :

ـ زارنى مندوب الصرف فى أحد الأيام ·· الله لا يريحه ·· بعدما قدمت بلاغا بالمركز شرحت فيه ما حدث بالتفصيل وقام رئيس الوحدة بنفسه بالمعاينة ·· طلب منى المندوب لحظتها الختم وكان كعادته متلهفا على السفر وبعدما ختم ناولنى الدفتر ومائة جنيه وقال :

ـ هذا المبلغ صرفته لك الشئون الاجتماعية ·· حاولى تدبرى به نفسك ··

اعدت النظر لمحتويات الدفتر ثم قلت لها بدهشة ··

ـ المفروض أنك استلمت المبلغ كله لأن ختمك يدل على ذلك ··

قالت وهى ترفع الطرحة من على رأسها :

ـ منهم لله سلبوا حق اليتيم ·· ربنا أقوى منهم ··

ذهبت بفكرى للأمس القريب وذلك عندما سألت المندوب هذا عن مواعيد الصرف حتى لا يرهق المستفيدين من كثرة السفر ويكونوا قد انفقوا أكثر من نصف قيمة المساعدة المقررة لهم ولكنه شرح لى بهدوء كيفية التصرف فى مثل هذه الأمور فهو يقوم فى معظم الأحوال بزيارتهم فى عقر ديارهم حتى لو كانوا يقيمون فى قرى بعيدة ويصرف لهم المساعدات بنفسه هذا بالاضافة الى أنه حذرهم أكثر من مرة من كثرة التردد على الوحدة بسبب وبدون سبب حتى لا يرهقوا ماديا وجسمانيا ·· لكنهم كانوا يعملون ودن من طين وأخرى من عجين ··

هنا فقط عرفت سبب زيارته للمستفيدين فى ديارهم لكن كيف أوجه له تهمة النصب والتزوير فى مثل هـذه الحالة وهو فى نظر القانون برىء ·

قلت لها وأنا اجذبها من يدها :

ـ انهضى وعوضك على الله وحاولى التصرف فى حدود المبلغ الذى حصلت عليه وفى امكانك استغلاله فى التجارة صرخت وهى تشد فى شعرها بعد ما نزعت الطرحة من عليـه ··

ـ يستغلون الفقيرة ·· المجروحة ·· أم الايتام ··

قربت الدفتر من عينيها وقلت لها :

ـ ختمك واضح ويثبت أنك استلمت المبلغ كله ..

اجابت بحزن :

ـ امية .. لا اعرف القراءة ولا الكتابة ..

لاشك ان لفصول محو الأمية أهمية قصوى فلو كانت هذه السيدة حصلت على قدر من التعليم كانت حمت نفسها لكن مع الأسف حتى لو وجد أحدها فهو قاصر على تعليم الرجال من الفلاحين لأن المرأة الريفية فى نظرهم ليس لديها وقت للتعليم ..

كانت السيدة مازالت تقف شاردة .. حزينة .. تبحث عن منقذ كالغريق الذى يستنجد بقشة ..

اقتربت منى وسألتنى بلهفة :

ـ كيف الحصول على فلوس ياست ليلى ؟

هل حاولت سؤاله مرة ثانية عن باقى المبلغ ؟

ـ ذهبت عدة مرات .. قالوا مرة مسافر وأخرى انه يصرف المعاشات فى ديار الفلاحين وعندما يشاء القدر أقابله واسأله بهدوء ولكنه ينهرنى بصوت عال ويتهمنى بالجنون ويسأل أحد العمال الذين تربطنى بهم صلة قرابة ويقيم فى نفس قريتى ان يطردنى من الوحدة أو يدخلنى مصحة نفسية لأن الحادث ربما أثر على عقلى ..

سألتها والدم يغلى فى عروقى :

ـ هل رآك أحد اثناء صرف المبلغ ؟

ـ ربنا هو الشاهد الوحيد ٠

هل حكيت لرئيس الوحدة ؟

ـ الصراف له منزلة خاصة عند سمعان بيه ولا يقبل أى شكوى تسىء له ٠

سرحت مع نفسى قليلا وقلت هامسة :

ـ هذه بالطبع حقيقة ٠٠ تذكرت عندما سألته عن مواعيد وجوده بالوحدة لحل مشاكل المستفيدين مع الصرف وخصوصا أنه لا يحضر سوى مرة أو مرتين على الأكثر فى الشهر أفادنى أنه ولد مكافح ويعمل لينفق على اخوته الأربعة ووالدته بعد وفاة والده ٠٠ ويكفى أنه متحمل مسئولية الوحدة بأكملها بالاضافة الى ظروفه الخاصة لم أجد الا أن أقول للسيدة قبل أن انصرف ٠٠

ـ سأستدعيك عندما يأتى الصراف وأحاول معه مرة اخيرة فربما هناك أمل ٠٠

(٢٠)

عـــامل النظافـــة

شعرت بالاختناق هذا الصباح نظرا لرائحة التراب المنتشر فى كل أركان المكتب والتى كادت أن تسد الأنوف ومن ثم فتحت شباك الحجرة الوحيد فربما يخفف هواؤه النقى من وحشة هذا الجو الضبابى الخانق ٠

تملكنى الزعر عندما أحسست بيد تنفض لى ملابسى ٠٠ التفت ورائى لأجد الطبيبة وبصحبتها فتاة لم أرها من قبل قالت الأولى وهى تمسك بملابسى :

انتظرى يا ليلى حتى انظف فستانك ٠٠ فقد غطـــاه التراب ٠٠

ـ لقد مللت من وجودى هنا ٠٠ ؟

أين عامل النظافة ؟

يئست من السؤال عنه والأمر من ذلك سلم الاستراحة ·· فاسطبل الخيل انظف منه ··

سألتنى الطبيبة بضيق :

ـ لماذا ترضين بهذا الواقع المرير ؟

والأمر من ذلك ··

(فى نهاية نهار أول أمس ·· حضر أحد العمال الذى لم أشرف برؤيته منذ قدومى لهذا المكان ·· وظل يدق فى الحائط المجاور لسكنى بحجة أنه يصلح النور مما أدى الى تراكم التراب وقبل أن يغادر السكن سألته عن المسئول عن النظافة وخصوصا ان تلال القمامة اصبحت تعوق حركة المرور ·· افادنى بأن مرعى هو عامل النظافة الوحيد بالوحدة ·· عينته الحكومة لهذا الغرض ويحصل على أجر بالطبع تعجبت لأننى لم أسمع بهذا الاسم من قبل ·· وعندما سألته عن مواعيد تواجده بالوحدة ··

قطعت الطبيبة حديثى وقالت :

ـ هذه فوضى وشىء أغرب من الخيال ··

اجبتها بغيظ :

ـ الأكثر غرابة أنه مشغول بالقراءة فى المآتم ولا ينظف سوى سكن رئيس الوحدة فقط ·· سمعان بيه ·· لحظتها ذهبت بفكرى للأمس القريب وتذكرت أننى

رأيته اكثرمن مرة ينظف شقة الرئيس ويقلبها رأسا على عقب لكن لم يخطر ببالى أنه موظف بالوحدة ومن قبل الحكومة وفكرت أن انتهز فرصة وجوده واطلب منه نظافة الاستراحة والمكتب .

أخرجتنى من شرودى الطبيبة وقالت وهى تشير الى الفتاة :

ـ نسيت أن أقدم لك أمل مدرسة بمدرسة القرية .

أهلا بكما وأقدم أسفى لاثارة مثل هذه المشاكل فى أول لقاء لنا .

واصلت الطبيبة .

ـ يبدو أنك طيبة .. لا تشغلى بالك بموضـــوعات النظافة وسأرسل لك أم على الدادة عندى لتلبى طلباتك رغم اننى لا أراها سوى مرتين فى الشهر وعندما تحضر لا تنظف الا العيادة فقط ..

قالت أمل لى بغيظ :

ـ فى امكانك استدعاؤه بصفة رسمية ليؤدى عمله الذى يرزق منه واذا رفض ففى امكانك عقابه ..

لا أريد ايذاءه حتى لا اغرس بذور الكراهية فى نفوس هؤلاء واتمنى أن يعملوا بمحض ارادتهم . ونتيجة لحبهم للعمل .

سألتنى الطبيبة :

ـ هل نفذ لك طلبك ٠ ؟

ـ اعتذر بحجة ارتباطه بعمل لدى بعض المسئولين وأفادنى بأن عامل النظافة المسئول سيحضر صباح الغـد لقضاء بعض طلبات الرئيس ولن يتأخر عن طلبى ٠

ـ وهل حضر العامل ولبى طلبك ؟

تنهدت بصعوبة ثم واصلت :

ـ فى صباح الأمس وبينما كنت فى طريقى لمكتبى اذا بى وجها لوجه بشخص ما ٠٠ كان يحمـــل بعض أدوات النظافة سألته على الفور :

ـ هل أنت عامل النظافة هنا ؟

أجاب بجرأة وخبث :

ـ فى الحقيقة يا ست هانم ٠٠ انا منتدب من مجلس المدينة وأضطر للعمل مقرىء فى المآتم لظروفى العائلية الصعبة ٠

ـ هل اذا جاءتك حالة وفاة اثناء تأديتـــك لعملـك الرسمى تتركه على الفور حتى لو لم يتم انجازه ٠٠

اجاب ببساطة وخضوع :

ـ نعم يا أبلة ·· أكل العيش مر ·· ربنا يعطيك الصحة ساعدينى ··

قطعت الحديث الطبيبة وقالت بضيق :

ـ لاشك أنه جرىء جدا ··

بالطبع ·· وكدت أن أنفجر من الغيظ وقلت له :

ـ كيف وأنت تقوم بعملين فى وقت واحد ؟

سأل بتوسل :

ـ معونة الشتاء يا ست هانم ·· تحصل ازمتى ·· ابنتى الوحيدة مريضة وأنا تحت أمرك فى أى طلب ومستعد لخدمتك فى أى لحظة ··

سألتنى أمل بدهشة :

ـ وهل منحتيه المساعدة ·· ؟

ـ بالطبع لا هناك عشرات الفقراء لا يعرفون التوسل ·· بالطبع هم فى أمس الحاجة أكثر منه ··

شرحت له ذلك اما ابنته المريضة ففى امكانه علاجها فى الوحدة الصحية ··

فجأة انتفض واقفا عندما قال له أحد الفلاحين ان اليوم يوافق الخميس الأول لوفاة شيخ البلد وساله ان يسرع الخطى ويسبقه على الجبانة ··

لحظتها لم ينظر حتى اوافق على انصرافه وبسرعة البرق حملته الريح وطار بينما يقول من بعيد :

ـ عن اذنك يا ست ليلى ..

سألتنى الطبيبة وهى تضرب كفا بكف :

ـ لقد فلت الزمام منك :

عقبت المدرسة وقالت :

ـ بالطبع هذا عامل وقح ويستحق أقصى عقاب ..

ـ لم أتركه يهنأ بعمله الاضافى بل كتبت مذكرة تفصيلية بما حدث وقد قدمتها لرئيس الوحدة ..

ـ لكن مع الأسف .. بعد قليل من تقديمها عدت لمكتب سمعان للسؤال عن بعض الاوراق واذا بى أجده قد فتح سجل الحضور والانصراف وراح يملأ الفراغات التى أمام اسم مرعى وذلك فى كل الايام التى تغيب فيها وعندما سألته عما يفعل قال ببرود ولا مبالاة .. هذا العامل مسكين ويسعى دائما لأكل عيشه . بالاضافة الى انه يقدم خدمة جليلة لأهل البلد .

قلت له بغيظ :

ـ بالطبع مسكين .. لأنه ساعيك الخصوصى ..

انفعل بالغضب وقال :

ـ أرفعى صوتك ··

أجبته بصوت أكثر ارتفاعا :

ـ اعتقد انك سمعتني جيدا ·· ولقد انتهينا من هذه المهزلة من قبل ·· واصبحت الأمور أكثر وضوحا ·

كادت نظراته ان تفترسني وظلت تلاحقني حتى غادرت المكتب وخرجت لأتنفس بعض الهواء ·

ـ سادت فترة صمت قليلة ··

قالت الطبيبة وهى تستعد لمغادرة المكـان « المكتب » وبصحبتها أمل :

ـ نأسف لتعطيلك واثارة الآلام ·· لقد رغبنا فقط فى الاطمئنان عليك اثناء مرورنـــا على الطـــريق الزراعى بالاضافة الى أن أمل كانت ترغب فى معرفة رأيك حـول مشكلة يعانى منها مدرسات المدرسة الابتدائية بالقرية ·

لقد غرقت فى همومى لدرجة اننى نسيت ان أطلب لكما بعض المشروبات ·· واتمنى سماع مشكلة المدرسات لاقدم ما استطيعه من معونة ··

قالت أمل :

سنزورك مرة أخرى بصـــــحبة بعض المدرسات ·· ونتحدث بالتفصيل لأنك مثقلة الآن بالاحزان ··

(٢١)

المدرســات فى القفص

عندما أوشك النهار على الرحيل وهلت خيوط الغروب تسرب القلق الى نفسى بينما كان الفراغ الذى يحيط بى من كل اتجاه يلقى بعباءة السأم على نفسى فيعمق فيهـا الاحساس بالغربة والوحدة ٠

خرجت للشرفة التى تطل على منحل الوحدة الذى يتوسط قطعة الأرض المزروعة بالخضروات تأملت الطبيعة لحظات فربما يخفف ذلك من عناء ما اشعر به ولكن أرقنى بعض الدبابير وأسراب النحل الهارب من الخلايا للبحث عن الأزهار ومن ثم اغلقت باب الشرفة وعدوت الى الوحدة الصحية فربما أجد مايخرجنى من أزمتى هذه ســـألتنى الطبيبة ان انتظر فى الاستراحة حتى تنتهى آخر حـــالة كشف ٠ وبعد لحظات كانت معى وبصحبتها أمل المدرسة

التى تعرفت عليها من قبل ، كانت تشكو من بعض الألم ، قالت عندما لمحتنى :

ـ أنا مسرورة لرؤيتك لأننى كنت افكر فى زيارتك فى أقرب فرصة لأمر يهم المدرسات المغتربات ..

ـ انا مستعدة بكل سرور لأية مساعدة مادامت فى امكانـى .

قالت بأسى :

ـ انا ومدرسات المدرسة الابتدائية وهى الوحيدة فى القرية كلها لا فرق بيننا وبين الدجاج المحبوس فى القفص خمس مدرسات يقمن فى حجرة واحدة . كانت من قبل فصلا دراسيا وكل محتوياتها سريران من الحجم الصغير ودولاب ذى لون رمادى داكن وقد سكنته الحشرات وأبـت مغادرته على الاطلاق ، بالاضافة لعدم وجود كهربـاء ونضىء الفصل . اقصد حجرة النوم . بلمبة غاز ..

ـ تنفست امل بصعوبة وقد بدا القلق واضحا على وجهها .

سألتها الطبيبة مشفقة :

ـ هل عاودك الألم مرة اخرى ؟

ـ لا ولكنى اتألم مما نحن فيه ثم واصـلت بمرارة الحديث .

والمصيبة حرماننا من مغادرة باب المدرسة لأن الساعى المخصوصى الذى كلفه سيادة ناظر المدرسة بحراســـتنا يحفظ المفتاح فى جيبه الخصوصى بعد ان يغلق علينا باب المدرسة الخارجى بقفل كبير ولا يفتح الا باذن الناظر ٠

واصلت الطبيبة وقالت :

ـ والشىء الاغرب من الخيـــال انهن لا يغـــادرن المدرسة الا مرة كل اسبوع وباقى الأيام فى داخل اسوار المدرسة اقصد السجن الخصوصى ٠ علما بأنه لا يوجد وسيلة ترفيه ٠ لا راديو ولا تليفزيون ولا أى شىء من هذا القبيل ٠

اضفت قائلة بضيق :

ـ حتى القرية كلها لا يوجد بها ناد للشـــباب ٠ فمنذ بضعة أيام زارنى بعض الشباب ومعظمهم من طلبة المدارس الاعدادية والثانوية بالوحدة واشتكوا من عدم وجـــود وسائل ترفيه تشغل فراغهم وطلبوا تعاونى فى انشاء نادى للشباب نظرا لعدم وجود أية وسيلة للترفيه لشغل فراغهم لدرجة أنهم ابدوا استعدادهم فى المساعدة فى التاسيس وبالطبع لم أجد الا أن أوعدهم بعرض مشكلتهم على مجلس القرية فى الاجتماعات القادمة ٠

واصلت المدرسة وقالت بضيق :

ـ اشعر اننا نعمل ربما فى معسكر جيش وقد يكون ارحم ·

سألتها بدهشة :

ـ وهل رضيتم بهذا الوضع ولم يفعل أحد شيئا ؟

يالطبع لا · لقد تمردنا وعبرنـــا عن ذلك بأن طلبت كل منا نقلها ونبذل كل جهدنا فى تحقيق ذلك ·

قطعت الحديث أم على الدادة بالوحدة الصحية ·

ـ استأذن سيادتك فى الانصراف · الليل زحـــف والأولاد فى انتظارى على العشاء ·

قالت لها الطبيبة بمرح :

ـ نشرب شايك اللذيذ وبعض الكيك ·

على بعد خطوات من مجلسنا راحت الدادة تعد المطلوب على بوتجاز صغير فوق منضدة ثم قالت موجهة كلامهــا لأمــل :

ـ حتى المدرسة الجديدة التى لم يمض على استلامها العمل بضعة أيام اختفت وكأن الارض انشقت وابتلعتها كانت نزيهة تلبس بنطلونا يفسر كل جسمها وتلون وجهها بالبودرة والأحمر والاخضر أما حذاؤها فطول الكعب شبر · وشعرها تسافر كل يومين المركز تفرده عند الكوافير واظافرهـــا كمخالب القطط وملونه بالـ ··

اضافت أمل :

ـ اكلادور .

قالت أم على وهى تقدم لنا الشاى :

ـ أهل البندر لهم(تقاليع) .

اضفت باستغراب :

ـ فعلا مادامت فتاة من هذا النوع يصعب عليهـــا التكيف فى هذه البيئة .

واصلت الدادة بسخرية :

وهى يا ستات كانت تدرس للتلاميذ . كانت بين وقت وآخر تتركهم وتجرى على المرآه تهندم نفسها .

سألتها الطبيبة باستغراب :

ـ من أين لك كل هذا ياداهية يا أم على . ؟

كل الناس فى سيرتها فى المدرسة . العمال والمدرسون وحتى التلاميذ .

قالت الطبيبة لتحسم الموضوع :

ـ نعود لمشكلتنا الاولى والاكثر أهمية . نرجو من الأبلة ليلى مساعدة المدرســـات فى تدبير ســـكن لهن فى استراحة الوحدة الاجتماعية وأعتقد أنها لن تتأخر فمن شيمتها الكرم والطيبة .

أجبت على الفور :

ـ أنا على اتم استعداد لتقديم أية خدمات لراحـــة المدرسات فكلنا هنا غرباء ولابد أن نتعاون فى حل مشاكلنا
قالت الطبيبة بأسف موجهة كلامها لى :

ـ تعلمين ان استراحتى كما ترين عبارة عن حجرة واحدة وصالة وجزء منها تشغله ثلاجـــة الوحدة لحفظ الدواء اما استراحتك فاعتقد انها أوسع ٠هى على الاقل حجرتان وصالة ٠

اجبتها بسرور :

ـ موافقة ولكن لابد من استطلاع رأى المدير ـ سمعان بيه ـ ليس من السهل ان يوافق على أى طلب ٠

قالت الطبيبة :

ـ بالنسبة لهذا المدير فسوف يتم مناقشة بينه وبين ناظر المدرسة ولكن لابد من موافقتك أولا ٠

ـ كانت الدادة أم على قد انصرفت منذ قليل لتلحق بأولادها قبل العشاء ولكن فوجئنا بها تعود بعد مايقرب من نصف ساعة وهى تحمل بعض الأطعمة الريفية ٠ ثـــم سألت الطبيبة ان تعطيها العلاج الخاص بها ٠

قالت الدادة وهى تحمل متاعها وتستعد للانصراف :

ـ لو سألت ام المدرسة التى هربت على عليها أى على المدرسة مرة ثانية بلغوها ان الشيخ جمعة فى بلدنا رجل

مبروك ويعرف الغيب يحسب لها النجم ويفتح البـــاب ·
أبو معشر · ويدلها على أراضيها ·

قلت بعدما انصرفت الدادة :

ـ يبدو أن الدجل والشعوذة تسود هنا بشكل مكثف ومخيف · أجابت الطبيبة بضيق ··

ـ يوجد عراف أو دجال فى كل قرية على الأقل · ويثق فيه الناس ثقة عمياء أكثر من ثقتهم فى رجل الدين أو شيخ الزاوية ·

قلت بحماس :

ـ اعتقد أن هؤلاء فى حاجة ماسة الى توعية للتحرر من أسر الخرافات التى تحول دون تقدمهم ·

واصلت أمل بكدر :

ـ بل ثورة على التقاليد والعادات والمعتقدات الخاطئة التى تجعلهم بعيدين كل البعد عن المدنية والتحضر قطـــع الحديث عامل الوحدة وقال :

ـ حالة مستعجلة يا دكتورة ·

قلت بتعجب :

ـ اننا على مشارف منتصف الليل ·

أجابت الطبيبة وهى تقاوم التعب :

ـ واحيانا تأتينى حالات وقت اذان الفجر ·

(٢٢)

اختفاء المدرسة

عندما يئست والدة المدرسة من العثور عليها ٠ وكانت قد اختفت من مدرسة القرية الابتدائية منذ عدة أيام فكرت فى البحث عنها عن طريق السحر ٠ ولم يكن ذلك من بنات أفكارها ولكن أم على دادة الوحدة الصحية شرحت لها بركات الشيخ جمعة ٠ وأبدت استعدادها لمصاحبتها لزيارته ليفتح لها كتاب أبى معشر ويقرأ الطالع ويرشدها لمكان اختفاء ابنتها ٠ فكم من حالات ميئوس منها زالت كربتها على يديه ٠٠ منها ٠

تزوجت ابنة شقيقة الدادة فى سن مبكرة كعادة أهل الريف وتأخرت فى الانجاب لدرجة أن حماتها فكرت فى البحث عن عروس لابنها المنكوب لتملأ داره بالذرية الصالحة ٠ فما كان من الزوجة التعسة الا أن توجهت للشيخ جمعة وتم المراد على يديه وانجبت بدل الولد

خمسة · ويقال انها قبل ان تذهـــب اليه كانت حاملا فى شهرها الأول ولم تؤثر الدادة فقط على عقلية والدة المدرسة ولكن من كثرة حكاويها حول هذا الشيخ ولمساته السحرية المفيدة بدأت الطبيبة تفكر فى زيارته وطلبت منى مصاحبتها بصـــفتى اخصائية الوحدة الاجتماعية ورؤيتى لمثل هذه الظواهر ستفيدنى فى مجال الحقل الاجتماعى ·

قلت لها بدهشة :

ـ لهذه الدرجة يسيطر السحر على عقول القرويين ·

ـ الأمر من ذلك يوجد فى كل قرية وكل نجع أو كفر أو عزبة أو دجال ويثـــق فيه النـــاس ثقـــة تفـــوق الوصف لدرجة ان القروية تنفذ تعليمات الشيخ بالحرف الواحد أكثر من طاعتها لأوامر زوجها ·

ـ لابد اذن من التوعية المكثفة وتلك مهمة الرائـــدة الريفية فى المرتبة الاولى · فلو احسن اختيـارها وتـــم تدريبها بالاسلوب السليم على تفهم مشكلات البيئة وكيفية التعامل مع ناسها ستصبح قوة مؤثرة وفعالة ·

ـ عندما اقتربنا من دار الشـيخ التى بنيت بالطوب الأحمر وظللتها الاشجار من كل الاتجاهات · ورغم أن مساحتها لا تقل عن ربع فدان الا أننا عجزنا عن الدخـول نظرا للزحام الشديد · انتشر الفلاحون من نساء وشباب

وشيوخ بل وأطفال كانتشار النحل فى حقــل الزهور ٠ بعضهم كان يعانى من امراض عضوية والآخر من امراض نفســية ٠

قالت ام على للطبيبة وهى تشير على عربة هناك ٠

ـ انظرى يا ست الكل ٠ العربة الكبيرة التى ابتلعت معظم الطريق ٠

ـ عربة من يا شيخة الحارة ؟

ـ ملك البيه الكبير رئيس الوحدة المحلية لبلدنا ٠ زوجته مشتاقة للأطفال كاشتياق العليل للدواء من سنين وسفرها المدينة وعالجها على يد احسن الاطباء وعملـت اكثر من عملية لازالة السمنة وأخرى كى لكن لا فائدة ٠ ولما يئس فكر فى علاجها على يد شيخنا المبروك ٠

قالت الطبيبة بسخرية :

ـ ربما هناك أمل ٠

لاحقتها الدادة على الفور وقالت بثقة :

ـ الأمل أكيد وان شاء الله تخرج مجبورة الخاطر ٠

قطعت الحديث ام المدرسة التى كانت كالغريق الذى تعلق بقشة ٠

ربنا يجعل على يديه الشفاء ويدلنا على ابنتـى سوسو ٠

ـ عندما اقتربنا اكثر من دار الشيخ · لمحنا اسرابا من البط والاوز السابح فى الترعة أمام الـــدار كان من كثرته يخفى عن اعيننا رؤية مساحة كبيرة من المياه ·

قالت أم على :

ـ كل هذا الخير هل تعلمون ملك من ؟

لاحقتها قائلة :

ـ ملك الفلاحين طبعا ·

ـ لا ملك الشيخ ربنا فاكره بخيره لأنه يعطف على الفقراء · ففى كل موسم يـــذبح بهيمـــة ويوزعها على المحتاجين · رجل مبروك وحياة سيدنا الحسين ولا واحد يخطى عتبة بابه الا ويخرج منصورا أو زالت كربتـــه باذن واحد أحد ·

واصلت الطبيبة الحديث ·

ـ ماذا يحدث لو تم تحويل هؤلاء للعيادات النفسية والطبية هل سيعجز الطب عن علاجهم ·

قلت لها ··

ـ لاشك أن التوعية المكثفة والمستمرة هى الحل والأمر يحتاج لصحوة كى يستيقظ هؤلاء الغارقون فى انهـــار الغيبيات ·

حاولت أم المدرسة ان تشق طريقها وسط الزحام لكن

منظم القاعة وهو فلاح شاب منعها من الدخول وقال بصوت عال ·

بالدور يا ست أم اننا فى جمعية ؟

اقتربت منه الدادة وصاحت فى وجهه وهى تنظر لنا :

ـ دكتورة الوحدة الصحية والست الاخصائية بالوحدة الاجتماعية فى حاجة للزيارة ·

بسرعة البرق تغير لون الشاب وقال فى خوف :

ـ يا ألف أهلا وسهلا · ثوان وسأحضر حالا ·

وقبل ان يغادر المكان أفسح لنا جزءا من الطريق وأجلسنا على احدى الدكك المصفوفة فى فناء الدار ·

قالت فلاحة شابة كانت تحتضن أمها المسنة المريضة وقد جلست بجوارها وركنت رأسها على كتفها ·

ـ أمى لابسها أسياد ورغم ان طلباتهم تنفذ الا أنهم لا يرغبون فى فراقها ويلازموها اينما وجدت · يطلبون أحيانا ان تحنى قدميها وكفى يديها وترتدى جلبابا أبيض وتغطى رأسها بطرحة خضراء · فكرنا فى زيارة الشيخ · رجل مبروك ولم نجد وسيلة للركوب الا حمارتنا حتى تعبت المسكينة من المشوار وسقطت فى الطريق عدة مرات ·

ـ لاحقتها أخرى مسنة راحت تربت على رأس شاب رقد على حجرها وقالت بحزن :

ـ ابنى ضنايا لبِسته جنية نفسها تتجوزه وكل ما أفكر

اخطب له يصرخ ويغير صوته ونسمع آخر قريبا من صوت النساء . (أنا أحبه ولا يمكن أن اتخلى عنه أبدا) .

ـ ثم يتوه ويغيب عن الوعى . زرنا الشيخ جمعة وعمل له حجابا وعدة وصفات لكن ربنا لم يرد بالشفاء .

صاحت شابة ذات ملامح عادية ونحيفة :

ـ ضرتى سقتنى المر . اصلها جديدة خطفت منى الرجل . سحرت له وافهمنى الشيخ جمعة بانها عملت له عملا ودفنته فى قرافة ويمكن يطلعه اليوم ـ الشهادة لله انه رجل مبروك ولا يأخذ فلوس الا بعد حل المشكلة .

قطع الحديث ابن الشيخ الذى جاء مهرولا وقال بصوت عال :

ـ افسحوا الطريق للدكتورة والابلة الاخصائية .

نظر الجميع بدهشة وراحوا يتهامسون ويضربون كفا بكف .

سرنا فى طريق طويل حتى وصلنا لدار اخرى ملحقة بالاولى بها ما يقرب من ست حجرات واسعة . كان الشيخ يجلس فى احداها على حصير وقد اسند ظهره على مخدة كان يرتدى جلبابا أبيض ويغطى رأسه بطاقية ويلف رقبته بكوفية خضراء وأمامه طبلية من الخشب عليها بعض الورق والحبر ذى اللون الأحمر والذى يطلقون عليه (الزعفران) بالاضافة لبعض الأقلام الملونة .

اشار لنا بالجلوس قبالته ثم طلب من معاونه اغـلاق الباب مع التنبيه بعدم دخول أحد حتى يأذن له ٠

سأل بقلق وهو ينظر للطبيبة :

ــ طلبات السيدات الفاضلات ؟

انتفضت أم على واقفة وصاحت وهى تربت على كتف أم المدرسة :

ــ يحفظك المولى من كل شر وينور بصيرتك الســت سلوى مدرسة كالبدر نزيهة ومتعلمة غابت عن المدرســـة بدون سبب واختفت من القرية كلها من اسبوعين ٠ قلبنا الدنيا بحثا عنها ولكن بدون فائدة ٠

أضافت الطبيبة :

ــ تعرضت فقط لبعض المضايقات من زميلاتها لأنها كانت ترغب فى حياة من نوع خاص والسكن فى المدرسة غير مناسب ٠

أجاب الشيخ فى هدوء ٠

ــ نعم فصل ردىء ولا يليق بأية حياة آدمية ٠ يقيم فيه بنات الناس المغتربات ٠ لفت نظر الناظر أكثر من مرة للعواقب التى ستحدث نتيجة لسوء تصرفه وسألته ان يمنح المغتربات دارا من دياره الكثيرة فى البلد للاقامة الدائمة

كحل مؤقت لكنه كان يرفض باصرار لانها مسئولية ويخشى اندماج البنات مع الفلاحين وما يترتـــب على ذلـك من اضرار .

ثم اعتدل فى جلسته واضاف وهو سيمسك بكتـــاب استعدادا لقراءة الطالع .

– اذكر الست الدكتورة بأننى أحـول لها حـــالات الأمراض العضوية والعصبية أو لطبيب المركز أما الحالات التى لها علاقة بالجن والاسياد والملمسات الارضية فهى من اختصاصى أى العلاج بالطب الروحانى .

أجابت أم على على الفور :

– معلوم يا سيدنا . وأنت سيد العارفين .

لزمنا الصمت أنا والطبيبة واكتفينا بالمشاهدة غالبا بينما والدة المدرسة سألته باشفاق :

– أرجوك يا سيدنا تدلنى على طريق ابنتى الوحيدة الغربة كانت قاسيةعليها ولم تتغرب من قبل .

سألها على الفور قبل ان يفتح الكتاب :

– اسمها واسم الأم والاطر .

اقتربت منها الدادة وقالت هامسة :

ـ اعطيه شيئا يخصها منديلها أو قميصها أو ٠٠ الخ ٠

فتحت السيدة حقيبة يدها وقالت بصـــوت منخفض للدادة :

ـ هذا منديلها لكننى استعملته ٠

سحبته الدادة وهى تقول :

ـ ينفع يا حبيبتى المهم فيه عرقها ٠ ولاتنسى تضعى معه بعض النقود ٠

ـ بعد لحظات كان الأطر في يد الشيخ ولكن يبدو أنه كان خاليا من العملة الورقية التى دستها السيدة فيه ولا ادرى ان كانت أم على قد اخفتها بمهارة أم لهفها الشيخ بسرعة البرق واخفاها عن العيون ٠

بدا يقلب فى صفحات الكتاب حتى استقر على احداها وقال :

ـ ان شاء الله يدلنا أبو معشر على المخبأ ٠

ـ ألقى نظرة سريعة على احدى صفحاته وقبل ان يغلقه سألته بشغف ان يقرأ محتواها ٠

ـ برجها الميزان ٠ وهو مائى حار رطب متقلب لـــه ثلاثة وجوه ٠ الأول ٠ امرأة بيضاء اللون ٠ سيدة أهل

بيتها كسيبة جيدة عزيزة النفس · حسنة الصورة معتدلة القامة غليظة البدن ·

همست أم المدرسة بدهشة :

ـ لكن ابنتى سوسو سمراء اللون نحيفة ·

واصل الشيخ دون تعليق :

ـ مدورة الوجنتين وكل شىء رأته بالحين عملته · توجد علامة فى صدرها محبوبة عند كل من رآها ·

ـ لا يوجد علامات فى جسم ابنتى ولو كانت محبوبة من أهل القرية فلماذا هجرتها ؟

ـ كلما يجتمع بها احد تصاب بأمراض كثيرة من قبل الدم كالدوخة وخفقان القلب والكبد ·

صرخت أم المدرسة :

ـ يا مصبتى ابنتى مريضة بكل هـذه الأمـــراض يا حبيبتى يا ابنتى ·

صاح الشيخ بكدر :

ـ أرجوك أنا أقرأ المكتوب ورزقى على الله ·

قالت لها الدادة :

ـ اصبرى يا أم سوسو الشيخ جمعه كله بركة ويقرأ الطالـــع ·

ـ يصلح لها اخراج الدم وشرب عصـــير الليمون وتعاطى سفوف الاصول · هى عاشقة ومعشوقة وتحب الزينة ·

همست أم على للدكتورة :

ـ فعلا لايوجد اشيك منها فى البلد كلها ·

ـ حياتها صافية النية والخاطر ولا تكره أحدا مرحة سخية مكشوفة الاسرار ·

ـ يا حبيبتى يا ابنتى لم تكن تخفى شيئا ·

واصل الشيخ بثقة :

ـ لكن تفشى بسرها لمن لا يكتمه وتعشـق الألحـان وشرب القهوة · قليلة البخت مع من تحسن اليه يخـاف عليها من دخول المحلات المظلمة ·

ـ فعلا يا سيدنا عندما كانت ابنتى تنام فى مكـان مظلم تستيقظ مذعورة وخائفة وكأنما اصابها مس من الجـان ·

ـ تنال الحج وزيارة بيت الله الحرام ·

قالت أم على ساخرة وهى تهمس للطبيبة :

ـ كيف وهى لم تفكر فى الصلاة ولا مرة ·

ـ كلما كبر سنها زاد رزقها وترزق التوبة وستموت فى نعمة من الله تكون بارة بوالديها وكانت مدللة وهـــى صغيرة ·

صاحت الأم :

ـ الحق يقال لا يوجد على الحجر سواها فهى أخت وحيدة لثلاثة صبية ·

قالت أم على بنشوى :

ـ يسلم فمك · كلامك يا سيدنا · لا يعلى عليه ·

واصل الشيخ بثقة وسرور :

هناك مشاجرة بسبب الورث · بيت أمراضها الحوت والمشترى ·

ـ لدينا بالفعل ميراث فى بلدنا أرض أمى وأبوى لكن لا يوجد مشاكل ·

تعانى من أمراض المفاصل ويوصف لها أكل البصل والخل والليمون ·

ـ كانت تحب رجلا وتغار عليه بشدة ، ستتزوج من رجل أو ثلاثة ولن تبقىمع الأول ولا مع الثانى وستعمر مع الثالث ·

قالت الأم بدهشة :

ـ تزوجت مرة وكانت تغار عليه من الهواء لكنه خائن غدار ربنا خلصنا منه على خير ٠

ـ ستكون معزوزة من طرف العجائز من الرجال والسيدات وجيدة العشرة مع الأصحاب وكثيرة الاصدقاء ٠

قالت الطبيبة هامسة للشيخ :

ـ هذا مشكوك فيه يا شيخ جمعة ولا مدرسة من زميلاتها فى المدرسة أحبتها واحترمتها وفرحوا جميعا عندما غادرت المدرسة وتمنوا الا تعود ٠

ـ شعر الشيخ بالحرج ولكنه واصل وهو يحاول أن يتماسك ٠

ـ تنال عزة ومحبة من رجل جليل القدر وتحسد على محبته ٠

ـ والدها يحبها بعمق ويلبى لها كل طلباتها ولا يوجد فى حياته غير سلوى ٠

ـ لديها عزيمة واصرار واذا نوت على شىء لابد من تنفيذه ٠

ـ ترى أحلاما كثيرة صادقة ٠

صاحت والدة المدرسة :

ـ فعلا وهى فى الثانوية رأت فى المنام انها حصلت

على ساعة من رجل عظيم . فسرت لها ذلك بانها ستحصل على الشهادة بتفوق .

ـ بيت الاعداء والصد السنبلة وعطارد .

ـ تكون كثيرة الاعداء من النســـاء وكل أمـــرأة صاحبتها . ويخاف عليها من امرأة سوداء اللون . مرفوعة القامة . بوجهها اثر واضح . تعمل لها السحر وتدفنه فى البيوت الخربة .

ـ لايوجد سواها . زوجة عمها . منها الله كل هذه الأوصاف تنطبق عليها . منذ ان تخرجت ابنتى والنــــار ثائرة فى جسدها لأن ابنتها التى فى سن سوسو لم تحصل الا على الاعدادية واعتقد انها هى التى سحرت لها لعدم استقرارها فى الوظيفة .

واصل الشيخ بثقة .

ـ تحذر من كل نجمة ترابيه فهى أكبر اعدائها . ولها قرين من الجان . يحرم عليها أيـــام الجمعة ، الأربعاء ، الأحد الاثنين الا تنام فيها مع أحد من الرجال وان حدث لابد من اتباع الآتى .

صاحت الأم بخوف :

ـ فعلا يا سيدنا . احيانا تصاب بالقلـــق فى هذه الأيام بالذات وليس ببعيد أن يكون الجان تسبب فى طلاقها

من زوجها · كان يحبها ويخاف عليها لكنه انقلب فجـأة وغير معاملته لها وتبدلت ملامحه واصبح رجلا آخر غير الذى عرفناه ·

واصل الشيخ فى انتشاء :

ـ تلبس خاتم نحاس أصفر أو ذهـــب بفص أحمر عميق · تنام جهة الغرب اى جهة القبلة · تحذر معاشرة الرجال فى الايام سالفة الذكر ·

ـ اغلق الشيخ الكتاب ثم القى بــه فى هدوء على الطبلية واعتدل فى جلسته بعدما بلع بعض الماء بعمق ثم راح فى لحظات مع الصمت والتأمـل · بينما تنفســنا الصعداء ·

سألت الطبيبة بلهفة :

ـ لكن أين هى الآن ؟

ـ قال الشيخ وهو يمسك بريشة ذات سن مدبــب ويغمسها فى الحبر الأحمر · الزعفران ·

ـ نفك العمل المدفون فى الخرابة البعيدة أولا · والذى تسبب فى ضياعها وسيتكلف ما يقرب من خمسة وعشرين جنيها بسرعة البرق أخرجت أم المدرسة بضعة جنيهات من حقيبة يدها والقت بها على الطبلية وهى تقول :

ـ خذ كل مامعى بشرط أن تعيد لى ابنتى واعـــدك بهدية كبيرة ·

سحبت الدادة الفلوس وناولتها للشيخ وهى تقول :

ـ ثمانية عشر جنيهـا · خذها الآن وكل طلباتك ستنفذ عندما يظهر لنا دليل لها أو نعثر على خيط يوصلنا لطريقها نزع الشيخ عدة ورقات بيضاء من كراسة أمامه مــزق بعضها ثم صنع منها ورقا صغيرا وراح يكتب فى كل منها بالزعفران وقال بعدما انتهى موجها كلامه لأم المدرسة :

ـ هذه خمس ورقات · ذوبى كلا منها فى كوب مـاء صغير وانثريها على عتبة باب البيت الذى كانت تعيش فيــه ·

ـ ثم ناولها حجاب وواصل الحديث ·

ـ وهذا يوضع فيه صورته ويحفظ فى كيس ويعلق فى أعلى مكان فى البيت ويا حبذا لو كان فى السطوح وذلك حتى تأتى على عجل · وعندما تعود بالسلامة سأكتب لها بضعة ورقات أخرى تذوب فى ماء، وتشربه حتى تثبــت أقدامها فى البيت ولا تغادره الا الى بيت العدل · وستظهر باذن الله فى بحر أربعين يوما ·

ـ وبينما نشق طريقنا وسط الزحام متجهين للخارج اذا بالدادة تصطدم بشابة ترتدى زيا يشبه أهل المدينـــة صاحت فى وجهها ·

ـ أهلا بالست فوزية الرائدة · كيف حالك وحـــال الأولاد ·

ـ ظلا يتهامسان بعض الوقت بالمقرب منا ثم افترقا حيث أخذت الرائدة طريقها حيث مقر الشيخ بينما عادت أم على لتواصل معنا الحديث ·

قالت وهى تشير الى الرائدة :

ـ الست فوزية رائدة ريفية فى المركز كله · عندها خبرة سنوات ·

سألتها بدهشـــة :

ـ هل تقوم ببحث ظاهرة السحر فى القرية ام تبث التوعية فى نفوس هؤلاء الذين سيطر الوهم عليهم وضللهم الجهل ·

قالت بأسى :

ـ مسكينة مع زوجها رئيس الوحدة المحلية ببلدنا · ليست على هواه يكرهها بعدما أنجب منها ثلاثة ابناء ويدور على حل شعره مع موظفة جديدة من البندر ويقـــال انـــه سيتزوجها · النار شعللت فى جسد الست فوزية ولا حيلة لها الا زيارة الشيخ وربنا يوفقها ·

همست لى الطبيبة بسخرية :

ـ ما رأيك فى اختيار الرائدة لتقوم بالتوعية لمحاربة الظواهر السيئة ·

المسألة فى حاجة الى دراسة وجهد متواصل دون كلل أو ملل مع ضرورة تضافر كل الأجهزة المعنية فى محاربة الفساد اقتربت منا ام على وقالت بانتشاء :

ــ ما رأيكم فى ان المدرسة ظهرت ٠

اندهشنا جميعا وسألنا فى صوت واحد ٠

كيف ومتى وأين هى الآن ؟

ــ بعض الفلاحين ابلغوا الست فوزية بأنهم شاهدوها صباح اليوم فى سوق المركز ٠

ثم اقتربت من الطبيبة وقد ابتعدت قليلا عن أم سلوى وقالت هامسة :

ــ كان بصحبتها رجل يقال انها تزوجته سرا وتعيش معه ٠

قالت لها الطبيبة بهدوء :

ــ اخفى على هذا الخبر ماجور ٠ واياك ان تبوحى لأمها ٠

انفجرت اسارير أم سلوى وراحت تردد فى انتشاء ٠

ــ ابنتى حبيبتى متى اراك ونلم الشمل ٠

لاحقتها أم على وأضافت :

ــ بركاتك يا شيخ جمعة ٠ قلت لكم أن سره باتع بحق ٠

(٢٣)

حــالة كشــف

دق باب العيادة بعنف بينما كنت اتحدث مع الطبيبة حول مشروعات التوعية الصحية والاجتماعية للقرية ودور الرائدة الريفية فى ذلك ·

انتفضت الطبيبة مزعورة وقالت بقلق :

ــ ادخــــل ·

ــ الطارق فتاة لا يزيد سنها عن الثالثة عشـــرة · كانت مضطربة وقد كست الصفرة وجهها · دخلت على الفور مهرولة وقالت وهى تبكى :

ــ انقذى أمى · يادكتورة · اغمى عليها وفقــدت النطــق ·

تقع دار المريضة فى اطراف القرية · بنيت بالطوب النىء ولا اثر فيها لطيور أو بهائم ·

ترقد المريضة على فراش ردىء فى قاعة تطل على فناء صغير يوصل لزريبة اغمضت عينيها وقد شحب وجهها وبدا الهزال واضحا على جسدها النحيل ٠

وضعت الطبيبة الترمومتر فى فمها وبعد لحظات اصابها الذهول عندما اكتشفت أن الحرارة مرتفعة جدا وتكاد تقترب من النهاية ٠

سألت الطبيبة بقلق :

ـ كانت أمك حاملا فى شهرها الثامن عندما زرتها آخر مرة فأين الطفل ؟

اجابت الفتاة وهى تجفف دموعها بكم جلبابها ٠

ـ مات بعد الولادة ٠

ـ متى حدث هذا ٠ ولماذا لم تبلغونى عندما شعرت بالام الوضع ٠

قالت الفتاة بمرارة :

ـ منها لله أم ابراهيم الداية ٠ طلبها والدى بعد منتصف الليل ٠ ظلت تضغط على بطن أمى وتضربها بعنف وتقول فى صراخ :

ـ الحقونى يا ناس الولادة عسرة ٠

ثم طلبت منى أن أجلس على بطنها لكننى خفت وبكيت عندما أغمى عليها وفقدت النطق ·

وقفت الطبيبة مذهولة وكأنها تلعن اليوم الذى ساقها للعمل فى هذه القرية التى مازال أهلها يسبحون فى انهار الجهل والامية · فقد نبهت أكثر من مرة لخطـــورة هذه الداية وبلغت شيخ الزاوية ان يعلن فى الميكرفون ليعلـم كل الناس انها ممنوعة من مزاولة المهنة · لقد تغير الزمن وزحف التقدم على الريف وأصـبح هناك فى كل قريـة طبيبة بل واكثر فلماذا يحدث هذا ؟

سألتها لاخرجها من تلك الدوامة :

ــ المريضة محمومة ويجب انقاذها بسرعة

ازداد انفعالها بالمغضب عندما لمحت زوج المريضة الذى ارتدى جلبابا مزينا ببقع من الطين وكان يسير حافيا وقد هده التعب وقالت بكدر :

ــ ابنك مات من سوء تصرفك · بالاضافة الى ان زوجتك مريضة بحمى النفاس ·

اجاب بخشوع وحزن :

ــ نصيب يا دكتورة ابنى الوحيد الذى كنت أتمنـى تراب رجله ربنا افتكره · كله بأمره ·

لاحقته الطبيبة على الفور :

- لا . الجهل وعدم اطاعة التعليمات هما السبب .

تراجع الرجل بخطوات مضطربة للخلف وقال وهو يخبط كفا بكف :

- استغفر الله العظيم الدكتورة كفرت يا ناس . لا حوله ولا قوة الا بالله .

ثم غادر الدار فى ذهول .

الحالة تزداد سوءا مع مرور الوقت اعطتها الطبيبة بعض المسكنات لتنخفض درجة الحرارة ثم تعد لنقلها الى حميات المركز . طلبت من الابنة التى مازالت تبكى أن تغير الفراش وتفتح شباك الحجرة لتدخل الشمس والهواء ولكن الابنة رفضت خوفا من البرد . اقنعتها بضرورة تنفيذ ما طلب منها حتى تشم أمها الهواء النقى الذى يعيد لها الحيوية والصحة .

بعد لحظات عدنا للعيادة وبصحبتنا الفتاة لتحصل على الأدوية كالبنسلين . بحثت عنها الطبيبة فى كل مكان فلم تجدها سألت عنها عمال الوحدة الذين يأخذونها بدون اذن ولكنهم انكروا معرفتهم بها . لم تجد الا ان تكتب روجتة علاج وتناولها للابنة على ان تحضر الدواء فى أقرب وقت ممكن .

ثم واصلت الكشف على بعض الحالات التى مازالت فى الانتظار . ربما الفتاة أخذت طريقها للخارج وقبل ان

تلحق به اذا برجل يأتى مهرولا لدرجة انه اصطدم بأحد المرضى الذى سقط على الأرض ٠

صرخت الفتاة فى وجهه وقالت :

ــ أمى اصابها مكروه يا أبوى ٠

اجاب بصوت متحشرج وقد اصفر وجهه وارتبك وهو يهم بالصعود للعيادة :

ــ اين الست الدكتورة ؟

هبطت الطبيبة على الفور وسألته :

ــ ماذا حــــدث ؟

أجاب بصوت حزين والدموع قد تجمدت فى عينيه :

ــ ام خديجة فى حالة خطيرة ٠ تركتها بين الحيـــاة والموت ٠

لم نجد مفرا من العودة لدار المريضة رغم ان ستائر الليل قد غطت القرية باكملها وساد صمت كئيب ٠

قالت الطبيبة بعد الكشف للزوج :

ــ حالتها خطيرة ولابد من نقلها فورا لحميات المركز ٠

لم يحرك الرجل ساكنا بل راح يتأملها فى ذهول ٠

جذبت الفتاة من يدها وسألتها ان تتجه الى المحطــة

لاحضار عربة أو أى وسيلة أخرى حتى لو كانت حمارا صرخ الرجل وهو يعيد الابنة لمكانها ويقول :

ـ مستحيل تترك دارها · سأبيع القيراط الذى أملكه من الدنيا واعالجها فى دارها حتى لو كلفنى الأمر لبيع الحيطان وحبة الغلة · قوتنا الضرورى ·

وصلت الطبيبة لقمة انفعالها ولكنها ظلت صامته · شاردة ولم تنطق بكلمة ·

قلت لها لأهدىء من روعها :

ـ ننتظر قليلا فربما يفيق بعد قليل ويدرك خطورة الموقف ·

واصل الرجل الحديث وقال :

ـ اهون على تموت فىدارها ·

اقتربت منه وحاولت أن أفهمه أن الحالة خطيرة ووجودها فى المستشفى فى صالحها حيث هناك الرعاية والاهتمام · لكنه راح يبكى ويضرب كفا بكف ويقول :

ـ حميات المركز · يا مصيبتك يا رجب · اللى يدخلها ماشيا يخرج على ظهره ·

ما زالت الطبيبة فى حيرة من أمره · سألتها أن نبلغ العمدة فربما نجد عنده الحل ولكنها قالت بيأس ·

ـ العمدة مات بينما كنت فى القاهرة وحتى الآن لم يتم اختيار سواه ٠

ـ نبلغ الشرطة حتى تخلى مسئوليتك ٠

ـ لا يوجد فى القرية كلها نقطة شرطة ولم يفكر أى مسئول فى المطالبة بذلك رغم اننا اثرنا هذه المشكلة فى اجتماعات المجلس القروى عدة مرات ٠ (يعملون ودن من طين واخرى من عجين) ٠

نستدعى شيخ البلد فربما يكون له تاثير ٠

ـ فى المستشفى حاليا لاجراء عملية جراحية ٠

قطع الحديث الزوج وقال بحزن :

ـ شيخ البلد ربنا افتكره ٠

نظرت الطبيبة حولها بدهشة ثم وقفت حائرة ٠ صامته جامدة وكانما فقدت القدرة على الحراك ٠

وبعد لحظات من التفكير والشرود نزعت ورقة من دفتر صغير كان فى حقيبتهاثم دونت بعض الأدوية وقالت وهى تناولها للزوج :

ـ اصرف هذه الروجتة حالا من اى صيدلية ٠

ثم نزعت ورقة أخرى وسجلت فيهـــا بعض البيانات وقالت بيأس :

ـ وقع على تحمل المسئولية ٠

أجاب بخوف :

ـ لا اقرأ ولا اكتب ٠٠

ـ ناولنى ختمك ٠

وبيد ترتعد اخرج من جيب سترته الداخلى الختم ثم انطلق مهرولا يقطع المسافات الطويلة لحارات القرية الضيقة حتى وصل الى المحطة التى مازالت ساهرة على ضجيج السيارات والعربات ٠

اوقفه شيخ الزاوية وسأله :

ـ الى اين يا رجب يا ابنى ٠ الدنيا ليل والوقت متأخر ٠

اجاب بصوت ضعيف وقد اضطرب من شدة الخوف :

ـ الى المركز يا سيدنا ٠ اشترى الدواء لأم خديجة ٠ أصلها بعافية وفى حاجة لدعواتك ٠

قال الشيخ وهو يربت على كتفه :

ـ لا تتعب نفسك هذه الساعة ٠ والنهار له عيون ٠ كل الابواب مغلقة الآن ٠ هيا الى الزاوية توضأ وصلى ركعتين واطلب الدعوات من رب العباد ٠

سار الرجل بجوار الشيخ فى خشوع وبدون اعتراض بعد لحظات ارتفع صوت الاذان يهز جــــدران القريـــة الصغيرة . وما ان هدأ الصوت قليلا حتى تسرب عبـــر خيوط الفجر صوت انين ضعيف وصراخ ونحيب ولا زال الليل المخيف لم يرحل بعد .

تسلل الى اذانه صوت الابنة الصغيرة ..

الى اين يا امى . الدار اصبحت ظلاما .

سقط مغشيا عليه بينما الشيخ يقف بجواره يقرا بعض آيات من القران ويقول له .. عوضك على الله يا رجب يا ابنى . مقدر ومكتوب .

(٢٤)

قـــلق

وبينما أتناول غذائى عصر اليوم اذا بطرق عنيف على الباب وبطريقة اضطربت معها نفسى · اندهشت عندما وجدت الطبيبة امامى · كانت منفعلة بالغضب · جذبتنى من يدى بشدة ومازالت تقف بالخارج ثم قالت بانفعال :

ـ هيا معى الآن ·

سألتها باستغراب :

ـ الى أين فى هذا الوقت الحرج ؟

أجابت بغضب واضطراب :

ـ الى قرية العطف لامسك بالحرامى

ربت على كتفها مهدئة وقلت :

ـ استريحى أولا ثم احكى لى ما يؤلمك حتى نتصرف بحكمـة ·

ناولتها بعض الطعام وكوبا من الشاى · قالت وهى تأكل بعضه وتبلع ريقها بجرعة من الشاى ·

مى صباح اليوم جاءتنى حالة كشف مستعجلة فى قرية قريبة وعندما عدت للاستراحة لم أجد السخان الخاص بى رغم أننى بحثت عنه فى كل مكـــان بالوحـدة حتى الحديقة ·

وهل هذا سبب ثورتك ؟

اعتقد ان هذا يكفى وخصوصا انه هدية من اخى المقيم بالخارج ·

آه لو تعلمى ماذا حدث لى بالامس كنت ضربت بكل شىء عرض الحائط ·

هدأت بعض الشىء ثم راحت تتناول باقى الطعام وقالت :

منذ الصباح لم اتناول حتى جرعة ماء ·

ما حدث شىء بسيط ولا يستدعى كل هذا الانفعال ·

سألتنى وقد هدأت بعض الشىء ··

هل أصابك مكروه ؟ تكلمى ربما ما يؤلمك يهون على ما حدث ·

عدت بالأمس من القاهرة لاجد شقتى هذه قد غرقت

فىبركة من المياه والسبب عدم اغلاق حنفيات شقة سمعان بيه وبالطبع لم احتمل وخصوصا اننى كنت مرهقة ولاأقوى على نزحها بنفسى ومن ثم ارسلت لاستدعاء أحد العمال المقيمين بالقرية . جاء على الفور لا ليلبى طلبى ولكن ليجمع بعض الجرجير من ارض الوحدة المزروعة بالخضروات ثم استأذن لوجود بعض الضيوف بداره وقد وعدنى بالعودة بعد قليل لتلبية كل طلباتى . وانتظرت بفارغ الصبر باقى النهار على أمل . يبدو انه قد رحل مع الغروب . ومع مرور الوقت كانت المياه قد تسربت لداخل الشقة ووصلت لحجرة النوم واغرقت كل شىء . ونظرت من الشرفة علنى اراه قادما مع شعاع القمر الرفيع فى بداية ليل طويل ولكنه كان حلم يقظة وكأنه فص ملح وذاب وعندما فرش الليل عباءته السوداء على الكون وكنت قد فقدت آخر خيط للأمل قمت بنزحها بنفسى وبقيت على هذه الحال من العمل الشاق حتى منتصف الليل الى أن جفت الأرض وكانت قواى قد هلكت معها ولم اشعر بعدها بتسرب مياه اخرى ويبدو ان العامل قد أغلق المحبس الرئيسى للمبنى وهذا كل ما فعله لأننى حاولت أن استعمل حنفية المياه ولكنها لم تدر ولو حتى قطرة واحدة واعتقدت ان المياه قد انقطعت .

كانت الطبيبة قد نسيت مشكلتها بصفة مؤقتة واندمجت فى الحديث معى ثم سألتنى بتعجب ـ ؟ وبالطبع منعتك

طيبتك من اتخاذ اى اجراء ضده حتى لا يعاقب وهو فقير ويعول رزمة من الاولاد ٠

ماذا تفيد الشكوى ٠ فكرت فى اللجوء للمدير رغم اننى أعرف ان النتيجة سلبية ٠ فهناك عشرات الشكاوى تكدست فى درج مكتبه او ربما القى بها فى دولاب مهمل وعفى عليها الزمن ٠ بعضها خاص باصلاح شباك الصالة المطل على الطريق الزراعى والذى تسبب فى صعود العمال ليلا معتقدين ان بالشقة حرامى وبعضها خاص بتجديد فرش السرير الذى غدا مرتعا للبق وتمزق معظمه وما بقى منه قد غطاه التراب والكثير من الشكاوى بخصوص تجديد السكن بأشياء ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها وخصوصا ان الأرض عارية ونحن فى عز الشتاء ٠ حتى المطبخ لا يوجد به نملية لحفظ المأكولات والشكوى الخاصة بها لا أعرف مصيرها وفى كل مرة اسأل عنها يقول الرئيس بلا مبالاة ٠

لا توجد ميزانية للتأثيث حاليا ٠ والأثاث الموجود صالح للاستعمال ٠

قالت الطبيبة بغيظ :

ـ ياله من انسان ردىء ٠

(٢٥)

السخـــان المفقـــود

ما أن وصلنا لدار العامل المتهم باخفاء السخان حتى صرخت الطبيبة فى وجه زوجته وامام أبنائه الصـــغار وراحت تسبه وتلعنه اثناء غيابه وقفت الزوجـــة مرتبكـــة ترمقها بنظرات عدائية وقد انفجر أطفالها فى البكاء وساد ضجيج هز جدران الدار الصغيرة وخصوصا ان العامل المعنى غير موجود · ولم تكتف الطبيبة بذلك بل راحـــت تبحث فى كل ركن بالدار وبأسلوب فوضوى وتبتسم فى غيظ ·

ـ لماذا يكرهنى هذا العامل الردىء لاشك أنه ينتقم منى باخفائه للسخان ·

ثم هزت كتف زوجته بعنف وقالت بصوت مرتفع :

ـ اين السخان دلينى عليه ؟

ظلت السيدة صامته واكتفت بأن تنظر لها باحتقـــار بينما وقفت مزهولة من هول ما رأيت وكدت ان إنصرف وحدى لكن الزوجة امسكت بى قائلة :

ـ انتظرى يا أميرة · العشاء جاهز وابو شعبان على وصول ·

ظلت الطبيبة تبحث عن السخان بعصبية فى كل مكان لدرجة انها كانت تفتش تحت السرير والكنبة وحتى فى تراب الكانون حتى حظيرة المواشى لم تفلت من اسلوبها الشاذ فى البحث وعندما لم تجد شيئا تقلب كل شىء رأسا على عقب وهى تصرخ فى عصبية بينما وقفت الزوجة صامته ترمقها فى دهشة وخوف ·

وتعجبت لحالها · لماذا لم تدافع عن نفسها أو عن زوجهـــا ولو بكلمة · ربما تخشى غضب الطبيبة وخصوصا أنها الوحيدة حاليا فى كل القرى التابعة للوحدة الصحية ·

وقفت حائرة اتأملها فى دهشة لأننى لم أكن اتوقع تصرفها بهذا الأسلوب اللا انسانى · مرت لحظات من هذا التوتر ثم فجأة غادرت الطبيبة الدار دون اســـتئذان · ظننت أنها ستقضى بعض الطلبات ثم تعود ولكن خاب ظنى · قطعت شرودى طفلة صغيرة وقدمت لى كوبا من اللبن الساخن اقتربت منى زوجة العـامل وقالت وهـى تشير اليها :

ـ ابنتى الوحيدة كريمة مكتوب كتابها على ابن خالتها نجهز لها هذه الأيام وقريبا ستزف اليه ·

اقتربت من الصبية وسألتها بصوت منخفض :

ـ كم تبلغين من العمر ؟

اجابت فى همس :

ـ ثلاثة عشر ·

ذهلت · كيف ستصبح هذه الطفلة اما وربة بيت وكيف ستتحمل المسئولية ·

واصلت امها التى كانت على قرب منا ·

احسن شىء للبنت سترها ·

همست لنفسى فى ضيق ·

ـ أليس من الأفضل ان تقـوم الطبيبـةـ ببحث هذه المشكلة والمشاركة فى وضع الحلول مع المسئولين بدلا من استغراقها فى مشاكل ليست ذات قيمة ؟

تاهبت للانصراف وخصوصا عندما يئست من انتظار الطبيبة وفقدت الأمل فى عودتها فلقد اختفت فى لمح البرق واستأذنت فى الرحيل رغم الحاح زوجة العامل المستمر لبقائى لكى اتناول العشاء معهم وعودة عم محمد العامل المتهم ليوصلنى الا أننى قررت رغم الظلام الذى كسى أركان القرية ·

أصرت الزوجة على اصطحابى للمحطة وقبل ان نتقرب

من عتبة الباب الخارجى صاحت بلهفة كمن وجد ضالته الحاج وصل ٠

اقترب منى وقال وهو يصافحنى بحفاوة :

اهلا يا استاذة ٠

بعد لحظات انفعل بالغضب بعد أن شرحت له الزوجة سبب هذه الزيارة المفاجئة وقال بغضب :

ـ هل يعجبك تصرفات الطبيبة السيئة ياست ليلى ٠ انها تعاملنى بأسلوب لا انسانى ٠ نحن فلاحون ولم نحصل على قدر كبير من التعليم لكن نعرف الأصول ونحتـــرم الاخلاق والعادات الحميدة ٠ مع الأسف هذه المراة اثبتت أنها بلا أخلاق ٠

غلى الدم فى عروقى وانفعلت بالغضب رغم عـــدم اقتناعى بسلوكها هذا اليوم الا اننى لا حقته قائلة :

لا أسمح أن تهان زميلة بهذا الاسلوب وخصوصا أثناء غيابها ٠ ولا تنس انها تؤدى خدمة جليلة لأهل البلـــد وتسهر على راحة المرضى وعلاجهم ٠ ليل نهار ٠

أجاب بمرارة :

ـ لا يخدعك مظهرها يا ست ليلى ٠ غرضها جمـع المال ومعظم حالات الكشف التى تأتيها تحصل منها على اجر مرتفع حتى فقراء الفلاحين لا ترحمهم لدرجة أن بعض

المرضى لا يجد الا ان يبتاع قوته الضرورى كالغلة مثلا ليسدد ثمن الكشف ٠

ان ما يقال فى نظرى أغرب من الخيال ٠ لا أكـــاد أصدق ٠ لهذه الدرجة يسيئون فهم الطبيبة اهتزت أوصالى وشعرت بشىء من الخوف ٠ ربما سأواجه مثل هذه المواقف فى الأيام القادمة ولكن اعتقد ان احتمال ذلك بعيد لأننى لم أسىء معاملة أحد من المستفيدين أو الموظفين أو العمال الذين اتعامل معهم امام الملأ ٠

عدت بذاكرتى للأمس القريب ٠ أيقنت ان هذا العامل ليس الوحيد الذى تسىء معاملته الطبيبة فهناك العشرات من موظفى المجلس القروى قد تعاملوامعهاثبتفشلالكشف ولم يقتنعوا بنوعية العلاج الذى قررته لهم فأحدهم ذهب اليها ليعالج اذنه من بعض الآلام فحقنته بالبنسلين ولـــم يعجبه وظل يسخر منها امام الملأ بينما كنت اقضى بعض الطلبات بالمجلس واحزننى ما سمعت عن زميلة تكافـــح مثلى فى الغربة وحاولت ان أشرح له أن مثل هذه الحقن مفيدة لحالته ولكنه لم يقتنع ٠ وهناك موظف آخر اصيبت ابنته بنزلة برد وتوجه لعيادة الطبيبة فاعطتها اقــراص سلفا ٠ وبالطبع لم يعجبه هذا الصنف من الدواء بحجة انه لن يفيد فى حالتها المرضية ٠

حاولت اقناعه ربما يكون لــه تأثير ولكنه ظل مصرا على رأيه ٠

كنت اتعجب وأسأل نفسى : ماذا ارتكبت الطبيبة من آثام حتى تواجه مثل هذه التهم التى هبطت عليها كالسيول تجرف ما أمامها • هل لأنها تؤمن بالحرية وترغب فى أن تعيشها بالطريقة التى تراها غير ما يـؤمن بـه البشر فى مثل هذه البيئات البسيطة أم لأنها تقوم بالكشف الخصوصى فى معظم الأحيان وتتقاضى مبالغ كبيرة ؟ ام ماذا ياترى ؟ لقد احترت وضاقت نفسى من كثرة ما سمعت من اشاعات موجهة لشخص الطبيبة لقد رثيت لحالها وخشيت على نفسى أيضا لكن ما العمل • هل استمر فى صداقتى لهـــا واضرب بكل ما سمعت عرض الحائط • عادت ذاكرتى للأمس القريب وتذكرت ما قالته لى أثناء نزهة قصيرة على شاطىء الترعة بعد الغروب •

الناس هنا يخشون تكتل المسـئولين وخاصـــة انك مسئولة عن الوحدة الاجتماعية وأنا عن الصحية وكل منا تمثل مركز قوة فى نظرهم وخصوصا اذا اجتمعنا واصبحنا يدا واحدة ومن ثم سيحاولون بكافة الطرق التفرقة بيننا • ربما تكون الطبيبة صادقة فيما قالته لكن هـــل هذا هو السبب المباشر للهجوم عليها أم هناك أسباب خفية اذن المسألة فى حاجة الى تقدير سليم للأمور ومحاولة جـادة لتقصى الحقائق من مصادر موثـــوق بها اســـتأذنت بالانصراف • أوصلنى العامل المتهم لباب الاستراحة نظرا لوحشة الطريق فى هذا الوقت الحرج •

ما أن علمت الطبيبة بوصولى حتى جاءت على الفور وقالت ببساطة وهدوء :

ـ لقد عثرت على السخان فى الصيدلية كان ملفوفا ببطانية وهناك احتمال كبير ان يكون الكلب المدعو محمد قد هربه واخفاه ليتلف اعصابى انتقاما منى ٠

سألتها وأنا اتجه للفراش وقد هدنى التعب :

ـ هل بينكما ثأر ؟

ـ يتهمنى بسوء السلوك وخاصة عندما يجدنى اقضى بعض وقت فراغى مع عامل العيادة الذى يصغره بسنوات واكثر منه حيوية وشباب ويغار منه لأنه يحمـــل حقيبة الكشف ويتقاضى البقشيش ٠

قلت لها بغيظ وأنا اتثاءب استعدادا للنوم :

ـ ربما لا يقول ذلك من فراغ ٠

قالت بلا مبالاة ٠

ـ أحيانا انسى أننى طبيبة وأهبط لمستواهم ٠

قلت لها محذرة :

ـ لا تنسى انك رئيسة وهم مرءوسون وعلى الرئيس أن يكون ديمقراطيا بالقـــدر الذى لا يفقد فيه احتـــرام المرءوسين وخاصة فى مثل هذه البيئة التى تحكمها العادات والتقاليد ٠

انسحبت فى صمت ويبدو أنها لم تقتنع برأيى ٠

(٢٦)

شـــكوى

وبينما كنت افحص أوراق العمل اذا بسمعان بيه ياتى على عجل · نظر لى بدهشة ثم تلفت حوله وكانه قـــد ارتكب خطا جسيما ويخشى أن يراه احد ·

سالته باستغراب :

ـ ما الذى أتى بك فى هذا الصباح الباكر · واعتقد ان هذا ليس من عادتك ·

اجاب وهو يقترب منى :

ـ قمت مبكرا وفكرت ان اشم بعض الهواء النقى ·

ظل صامتا لحظات ثم نظر حوله مرة اخرى وعندما لم يجد أحدا سالنى بلهجة سريعة ·

ـ هل طلبت شيئا يخصك من أحد المستفيدين ؟

سألته بقلق :

ــ ماذا تقصد ؟

أجاب بسرور :

ــ تقدم فلاح بشكوى ضدك لمدير الادارة يتهمك بأنك طلبت منه أشياء خاصة بك مقابل صرف مساعدة أسر المجندين لابنه ٠

بسرعة البرق تسرب الخوف الى نفسى ولكننى تمالكت اعصابى وسألته ٠

ــ من يكون هذا ٠ ومن أى قرية ؟

قال بهدوء وثقة :

ــ هل شعرت بالخوف ٠ انها مجرد شكوى لكن ربما بعد التحقيق تثبت التهمة وتصبح جريمة يعاقب عليها القانون ٠

حاولت جاهدة ان اطرد الخوف الذى ملأ نفسى ثم تجاسرت وقلت ٠

أنا واثقة ان ما حدث لعبة دبرها احد الحاقدين كسلاح يحاربنى به ٠ ربما يخشى على منصبه الذى وصل اليه بخداع البسطاء من الناس وذلك عندما أصبح يعمل معه آخر أكثر وعيا وحرصا على مصلحة العمل ٠ وهذا الحاقد

المضلل من الموظفين هنا · والذين يخشون حرمانهم من الرزق الحرام الذى يحصلون عليه من عرق المبؤساء وذلك عندما يغرسون فى أنفسهم الوهم بأنهم هم المنصفون لهم ·

تنهد الرئيس بصعوبة وقال بضيق :

ـ على أى حال صاحب الشكوى من اهالى قريـــة بهبيت وهو رجل مسن ·

كان يقف بالقرب من سمعان بيه العامل غريب وهو من نفس القرية وما ان سمع ما دار بيننا حتى انتابه الخوف وشردت نظراته ·

نظر له الرئيس وقال وهو يضربه على كتفه :

ـ ما الذى جاء بك يا غبى هذا الصباح · لقد حسبت اننى وحدى ·

قال غريب وقد اصفر وجهه :

ـ لم أنم ليلة أمس وعندما شعرت بالقلق ·· حضرت على الفور ·

سال الرئيس بعنف :

ـ لماذا هل ارتكب جريمة · امش على المنحل ·

أجاب العامل وهو يعدو :

ـ سمعا وطاعا يا سمعان بيه ·

حاولت أن أعصر ذهنى لاتذكر مساوىء هذا العامل ·

بالأمس عندما توجهت الى الوحدة الصحية قبل نهاية وقت العمل وذلك لاستكمال بعض الأبحاث رأيت غريبا هذا يقف مع بعض المستفيدين ويتحدث معهم بود وعندما اقتربت منه اضطرب بينما كان يضع شيئا ما فى جيبه ·

كان قد أخذه من المستفيدين ثم قال لهم بلهجة سريعة :

ـ سأبذل كل جهدى فى استعجال طلباتكم ثم انصرف قبل أن اقترب منه · وعندما عاد للوحدة سألته عما كان يفعل قال بخوف :

ـ بعض المستفيدين كانوا يسألون عن سبب تأخير طلباتهم ·

ولماذا تتحدث معهم خارج المكتب ؟

أجاب بخبث :

ـ أردت أن أرحمك من متاعبهم ·

لا تشغل بالك بذلك فلقد جئت من اجلهم ولا تجعلنى اتخذ اى اجراء ضدك · ولا تنس انك رب أسرة ·

انصرف وهو يهز رأسه علامة الموافقة ويبدو أنه كان يخفى شيئا ما ·

سألنى الرئيس ليخرجنى من شرودى ٠

لا تفكرى كثيرا ٠ انها مجرد شكوى وفى امكاننا مساعدتك ٠

كنت افكر فى بعض الأبحاث المتأخرة ثم لا أخاف احدا وثقتى فى الله تفوق الحد ٠

قال وهو يقترب منى بصوت منخفض ٠

لقد وقع نظرى عليها عندما كنت فى ادارة المراقبة الاجتماعية وطلب منى المدير العام عدم اثارة الموضوع وكان يرغب فى اخفائها لكننى اردت ان اخبرك لتأخذى حذرك ٠ فالناس هنا اشرار ومهما بذلت من مجهود لراحتهم فلن يعجبهم شىء ودائما يطلبون المزيد ٠

قلت له مشفقة :

ـ ارجو الا تقسو على الفقراء فلا مصلحة لهم فى ذلك ٠

قطع الحديث غريب الذى جاء على عجل ليقول للرئيس :

ـ تليفون من المديرية يا سمعان بيه ٠

قال المدير بلهجة سريعة قبل أن ينصرف :

ـ لا تخافى وتجلدى لأنك ستجدين من هذا النوع الكثير ولا داعى لاثارة المتاعب ٠

أجبته بشجاعة وثقة :

ـ مثل هذه المسائل التى تتعلق بالشرف والكرامة لا ينبغى السكوت عليها وخاصة اذا كان المتهم بريئا ٠

وقفت حائرة وقد اصابنى بعض الدوار ٠ ألقيت نظرة حولى حيث زملائى الذين يكنـون لى احترامـا وتقديرا والمستفيدين الذين يحبوننى لنزاهتى وحسن تصرفى معهم لكن ماذا سيكون موقفى لو تحولت مشاعرهم ٠ حتمـا سيحدث هذا ٠

وياخبر بفلوس ٠ لحظتهـا لـن احتمل نظراتهـم المريبة وسوء معاملتهم لى ليصبح من العسير البقاء هنا ومواجهة العشرات من المستفيدين الذين دائما يمطروننى بدعواتهم الطيبة ٠ لن اسكت وساواصـل السير للبحث عن الحقيقة ٠

قطع حديثى مع نفسى المهندس احمد وقال :

ـ هل تكلمين نفسك ؟

أجبته بشىء من الارتياح :

ـ لاشىء سوى بعض القلق بخصوص طلبات المستفيدين التى لم تصل بعد ٠

قال وهو يقترب منى وقد لامست يدى يده :

ـ لقد تسرب الى سمعى كلمات غريبة ·· حبس ·· ظلم ·· ثم لماذا ترتعد يدك · لاشك أنك فى حاجة الى تغيير هذا الجو المشحون بالمشاكل ولتكن رحلة قصيرة فى احضان الطبيعة الهادئة تنسين فيها متاعب العمل ومشاكل المستفيدين وتعودين لنفسك ·

اجبته بخوف ومازالت يدى تصافح يده :

ـ عندك حق · فزحمة العمل ومشاكل المستفيدين ارهقتنى ·

ـ لماذا لا تسافرى الى القاهرة ؟

ـ لا تشغل بالك ·· اننى بخير ·

لقد نسيت يدى فى يده لحظات · شعرت فيها بالدفء والراحة التى تسربت الى كل كيانى وذاب الخوف الذى كاد ان يجمد أطرافى · تمنيت ساعتها أن يأخذنى أحمد لأعيش بعيدا عن هذا الجو الكئيب بكل ما يحمله من مشاكل فانا الآن لا أريد القاهرة ولا القرية ولكننى أرغب فى البقاء معه ليحمينى ويدافع عنى حتى لا تفترسنى الوحوش ·

كدت أن أصرخ بأعلى صوتى وألقى برأسى على كتفه ·

خذنى من هذا الواقع · بعيدا عن المزيفين والغوغاء احمنى لأننى ضعيفة ولا أقوى على المقاومة ·

افقت على اصوات المستفيدين فى الخارج حيث كانت تناديني . انهم ينتظرون بفارغ الصبر . كل امالهم معلقة على ان تساعدهم الاخصائية الجديدة وتخلصهم من معاناتهم .

قال أحمد وأنا اغادر المكتب لمقابلة المستفيدين الذين انتشروا بالعشرات فى فناء الوحدة الاجتماعية .

لا تخدعى نفسك اكثر من ذلك ولابد أن نجد لنا حلا .

ربنا يقدم الخير .

اتجه احمد الى مكتبه فى المجلس ومازالت نظراته تلاحقنى . تسرب القلق الى نفسى ماذا لو علم بالتهمة الموجهة لى لا شك أنه سيتغير وربما سيبتعد عنى ولن يفكر فى السؤال عنى لكن الشىء الذى كان يصبرنى أنه يحبنى وحتما سيقف بجانبى وخصوصا اذا علم اننى مظلومة .

اقتربت منى موظفة . شعرت بالخوف عندما ألقت تحية الصباح لم تكن كعادتها . كانت تمر من امامى فى معظم الاوقات دون أن تهمس بكلمة . صمتت قليلا وهى تقترب منى أكثر . توقعت انها ستحدثنى فى موضوع الشكوى لكن خاب ظنى . عندما سألتنى :

ـ ماذا بك يا ليلى ؟ لماذا تكتئبين هكذا ؟ هل أغضبك سمعان بيه فى شىء ؟ انه يفعل ذلك كثيرا معنا لكننا نراعى ظروفه لأنه مريض .

أجبتها وقد هدات نفسى قليلا :

ـ لا شيء سوى مرض أمى يقلقنى أحيانا ٠

ـ لماذا لا تسافرى ٠ هل يشغلك التوقيـــع فى دفتر الحضور والانصراف ٠ اطمئنى ٠ سوف اقوم بالواجب وبالنسبة للغياب فلا تكترثى ٠ هنا الاجازات مفتوحـــة بسبب وبدون ٠٠

همست لنفسى بغيظ وأنا انظر اليها ٠

ـ أنت ايضا من هذا النوع المستهتر ٠ اننى بالفعل فى امس الحاجة للتغيير والبعد عن مصدر المشاكل لكــن لا ينبغى أن أترك الخصم يستغل غيابى ويلهو كما يشاء ٠ لابد أن ادافع عن نفسى لأن غيابى لا يعنى سوى الهروب من مسرح الجريمة وسأبقى حتى تثبت براءتى ٠

بدأت الهواجيس والظنون تطاردنى وأنا انجز بعض ابحاث المستفيدين ٠ عصرت ذهنى لأتذكر أى شيء حدث بينى وبين أحد المستفيدين ويطلق عليه رشوة ٠

وتذكرت الحادثة الأولى ٠

ـ فى بداية وجودى فى الوحدة جاءتنى سيدة عجوز واشتكت من أحد عمال الوحدة ويدعى غريبا حيث أخــذ منها الختم ٠ ووعدها بصرف المعاش وتوصيله لبيتها لأنها من بلدته ٠ والجار أولى بالمعروف ٠ وكانت قد حضرت

لهذا الغرض عدة مرات ولم تجد مندوب الصـــرف وبعد معاناة صرف لها شهرين من معاشها المتأخر ولم يسلمها الباقى رغم انه ختم بخاتمها انها استلمت المبلغ كله ٠

نظرت لى بحزن وقالت :

ـ انت عارفه ظروفنا ياست ليلى ٠ فقراء ونعيش على رزق يوم بيوم ٠ ساعدينى لأحصل على باقى فلوسى ٠ شهر متأخر لم استلمه ٠ اخذت منها السركى المسجل به مواعيد الصرف وتأكدت من صحة ما قالت ٠ استدعيت العامل وعندما سألته عما حدث انكر ثم قال بجراءة وهو يقترب منها وكأنما يهم بضربها وقد وجه نظره لى ٠

ـ لا تصدقى هؤلاء ياست ليلى ٠ ليس وراءهم غير المتاعب ووجع القلب ٠ ثم خبط العجـــوز فى كتفها وهو يقول ٠٠

ـ هيا الى دارك وكفى مضايقات ٠ عندنا شغل ٠

تعجبت من أمره والأغرب من ذلك ان الرئيس يجلس على قرب منا ولم يهمس بكلمة !

واصل العامل كلامه بصوت مرتفع :

ـ لقد اخطأت عندما قدمت لهذه السيدة معـــروفا لا تستحقه ٠

سألته بعنف :

ـ لا داعى للضوضاء فى وجهها والصراخ ومعاملتها باهانة · لا تنس انها فى سن والدتك ثم من حقها ان تطلب مالها واذا كنت لم تأخذ منها شيئا · لماذا تتهمك · هل تدعى ؟

أجاب بمرارة :

ـ لا تصدقى هؤلاء ·· انهم يمثلاون ادوار البؤس حتى يعطف عليهم اصحاب القلوب الرحيمة · وهذه السيدة التى تتهمنى تتاجر فى الزبد والجبن ولديها بهيمة ·

انصرف العامل وهو يقول :

من بلدى وانا عارفها ·

لم أجد الا ان اعدها بحل مشكلتها رغم أن الأمل ضعيف ·

فى صباح اليوم التالى حضرت السيدة المذكورة وسألتنى ان كنت فى حاجة الى زبد أو جبن وبالفعل كنت فى امس الحاجة لمثل هذه الأطعمة · انصرفت السيدة دون ان اجبها ثم عادت بعد قليل ومعها وعاء به بعض الزبد والجبن · وعندما سألتها عن الثمن كادت أن تترك الوعاء وتغادر المكان ولكننى صممت ان أدفع لها الثمن والا لن أقبل شيئا وبالفعل أخذت المبلغ الذى حددته ·

وبينما أفكر فى هذه الحالة وعما تعتبر رشوة ام

أم لا قطع شرودى صوت قروية شابة · كانت ترضع طفلها وتجر ثلاثة وراءها قالت بأسى :

ـ سمعنا عن طيبة قلبك يا ست ليلى · زوجى مجند من شهور طويلة وقدمت طلب مساعدة من عدة أسابيع للرئيس ولم يرد على للآن · الأولاد محتاجون مصاريف كثيرة ·

سألتها أن تنتظر حتى أبحث عن طلبها وبعـــد وقت ما عثرت عليه ولم يكن مرفقا به أية مستندات للبحث ·

سألتها بدهشة · أين باقى الأوراق ؟

ـ لم يطلب منى احد أى طلب ·

على أيه حال انسى ما مضى ونفذى ما سأطلبه منك ·

اقتربت منى وهى تمطرنى بدعواتها الطيبة بينما رحت ادون لها فى ورقة المستندات المطلوبة وقلت لها وأنا اناولها اياها مطلوب شهادة حيازه زراعية من الجمعية الزراعية · وشهادة أخرى تثبت أنك فقيرة ولا أحد ينفق عليك ولا على الأولاد وتحصلين عليها من المجلس المحلى وشهادة ثالثة من القوات المسلحة تثبت بأن زوجك مجند ·

عندما انصرفت السيدة تذكرت الحالة الثانية وتوقعت ربما اعتبروها رشوة وعلى ذلك طلبوا التحقيق معى ·

تأخرت أوراق أحد المستفيدين نتيجة لعدم رد جهـة حكومية وجاءتنى السيدة صاحبة الطلب وهى تحمل صرة

مليئة بالبيض البلدى · تركتها فى مكتبى وانصرفت دون أن تهمس بكلمة لكننى استوقفتها لتأخذ الثمن لاننى كنت بالفعل فى حاجة الى البيض · رفضت فى البداية بحجة ان مجهودى معهم لا يقدر بثمن وان هذه خدمة بسيطة ·

والشىء الأغرب من ذلك ان احدى المهجرات حاولت ان تتدخل لدرجة انها حملت الصرة وطلبت منى مفتاح الاستراحة التى اقيم فيها لتضعها هناك بعيدا عن الأعين لكننى رفضت قبولها بدون ثمن · وبعد قليل ذهبت المهاجره الى القروية وهمست فى اذنها وعادت واخذت منى الثمن وناولته للسيدة ·

وبينما كنت افكر ما اذا كانت هذه الواقعـــة تعتبـر رشوة أم لا اذا بالعامل يطلب منى مقابلة الرئيس ومعى السجلات والملفات الخاصة بعملـــى لأن بعض مفتشى المديرية قد حضروا فى زيارة عمل ·

القيت نظرة على فناء الوحدة واذا بى أجد عربـــة سرفيس بها سائق · سبق ان رأيته فى المدينة · جمعت كل الأوراق وارسلتها مع العامل وعدت لاواصل رحلـــة البحث فى أوراق الذاكرة علنى أجد وقائع أخرى تثبت ادانتى وتذكرت المرة · الثالثة والأخيرة ·

زارتنى ذات صباح سيدة مسنة لا تملك من حطـــام الدنيا شيئا واشتكت لى أنها لم تحصل على قيمة المعاش

حتى الآن رغم انها قدمت اوراقها منذ مدة طويلة رغـــم انهم يعلمون ظروفها فلا عائل لها ولا أحد ينفق عليها سوى حســـنة تاتيها من فاعـــلى الخير ٠ كانت تبكى رتيبة لحالها وسألتها ان تزورنى مرة فى الاستراحة كل أسبوع لقضاء بعض الطلبات مقابل بعض المال حتى يتم فحص أوراقها ومساعدتها ٠ ولكنها لم تأت فى حضورى وعلمت بالصدفة انها حضرت مرة اثناء غيابى وكانت تحمل بعض النذر وعوملت بشكل ردىء من قبل المهاجرين ٠

فهل اساءت لى تلك الواقعة واعتبرها البعض رشوة ٠ لا اذكر بعد ذلك اننى طلبت من أحد المستفيدين شيئا يخصنى ولم اطلب سوى الأوراق والمستندات الخاصة بمصالحهم الشخصية لكن الشىء الذى كان يحيرنى ٠

ماسبب هذا الاتهام ؟ هل يكن لى البعض حقدا وأراد الثأر ٠ لاشك أن هناك شيئا غامضا مازلت لم أعرفه ٠

باق على انتهاء وقت العمل ســـــاعة ٠ لـــم احتمل الانتظار ٠ كانت فى نفسى رغبة ملحة للوصول للحقيقة باقصى سرعة وقررت على الفور التوجه للادارة الاجتماعية بالمركز رغم أننى لم أصل الا بعد مايقـــرب من نصـــف الساعة ٠

« وفى لمح البرق كنت فى مكتب الـــرئيس لأســـتأذن بالانصراف وهناك رأيت ما عمق الأسى فى نفـــسى ٠ »

كان يودع المفتشين الذين اســـرعوا الى عربتهـــم وبصحبتهم غريب · كان يحمل بضعة علب كبيرة من عسل النحل زنة كل منها خمسة كيلو جرامات · ألقـــى بها فى العربة التى حملتهم بسرعة وطارت ·

سألت عم أحمـــد ذلك العامل الطيب حيث كان يقف مبهورا :

ــ هل اعجبهم عسل النحل فاشتروا منه ؟

نظر لى بتعجب وغيظ وقال ساخرا :

ــ هذه العلب الخمسة هدية الوحدة لمجهود المفتشين العظيم ·

لم احتمل حتى يأذن لى الرئيس بالانصراف وناولت العامل اذن الانصراف وغـــادرت المكان وبداخلـــى بركان يغلى ·

فى لمح البرق حملتنى التايوتة الى مقر الادارة وحمدت الله لأن المدير العام مازال لم يغادر مكتبه بعد · تسرب الخوف الى نفسى وأنا اخطو نحو عتبة باب مكتبه · فكيف سيواجه هذا الموقف وخصوصا أن هذه هى المرة الاولى التى أزور فيها الادارة · لكننى شعرت بالاطمئنان عندما رحب بى وطلب لى مشروبا ولم يهمس بكلمة حول ما يخيفنى لدرجة اننى توقعت ان التهمة الموجهة لى ملفقة من قبـــل

رئيس الوحدة ولكن كانت بداخلى رغبة ملحة فى ان اتكلم وقلت له بهدوء ·

ـ تعلم سيادتك انى أقوم حاليـــا بعمل التوعيـــة للمشروعات الاجتماعية الهادفة كالرائدة الريفية · ولقد اصبح عندى ما يقرب عن عشرة فتيات يرغبن فى العمـل بهذا المشروع وذلك من قريتين فقط ·

قال بصوت منخفض :

ـ اشكرك على مجهودك الكبير ولكن يبقى ان تعرفى شيئا وهو اننا فى نهاية العام المالى ومازلنا فى انتظـــــار الميزانية الجديدة وعندما تصل سنبدأ فى التنفيذ ·

سألته بثقـــة :

ـ هل يوجد حاليا اية مبالغ لكى نبدأ بها فى تنفيذ بعض المشروعات ؟

لا يوجد حاليا وعلينا الانتظار مع الاســـتمرار فى حملات التوعية المكثفة والمستمرة ·

ساد صمت · همست لنفسى :

ـ لقد ادرك المدير الآن اننى لم آت للسؤال عن الشكوى وآن الآوان أن أشير اليها لمعرفة الحقيقة وتظاهرت برغبتى فىالانصراف · أمهلنى حتى ارتاح من عناء الطريق ·

سألته ان كان يوجد أعمال أخرى فى الامكان القيام بهـا ٠

قال بحذر :

ــ يوجد شىء يخصك وأرجو ألا تقلقى ولا يؤثر فيك ٠

اضطربت نفسى على الفور وسرى الخوف فى كل كيانى وسألته وأنا أجمع مابقى لى من شجاعة للمواجهة ٠

ــ ما هو ؟ اتمنى لو اعرفه حالا ٠

ــ نعم هذا من حقك ٠

فتح درج مكتبه واخرج ورقة ثم قرأ محتواها ٠

(تطلب السيدة الاخصائية بوحـدة البليدة مركـز العياط بعض المشتريات الخاصة بها من المستفيد فرغلى البهنساوى بقرية بهبيت على نفقته الخاصة مقابل صـرف المساعدة التى تخص ابنه المجند ٠)

ثم واصل المدير بعدما طوى الورقة ووضعها جانبا ٠

هذا موضوع الشكوى واعتقد انه تافه ولن يؤثر فيك لأننى اثق فى نزاهتك كاخصائية ٠

تسربت الراحة الى نفسى وخصوصا عندما سمعت هذه الجملة الاخيرة وبدا الخوف ينسـحب من نفسـى بالتدريج وقلت بجراءة ٠

ـ اتمنى أن تأخذ هذه الشكوى طريقها الطبيعى حتى لو وصلت للنيابة فهذا من حقى وسوف اتحمل المسئولية ٠

قال بهدوء وبساطة :

ـ المسألة لا تحتمل هذا وقد قمت بالاجراءات اللازمة ٠

ـ هل فى امكانى معرفتها ؟

أجاب وهو يأخذ نفسا عميقا :

ـ استدعيت صاحب الشكوى وسألته ان كانت الاخصائية قد طلبت منه هذه الاشياء ٠

لاحقته بلهفة وقلت :

ـ ماذا قال ٠ هل اعترف بالحقيقة ام حاول المراوغة؟

قال المدير وهو يضحك :

ـ انتظرى ولا تتعجلى الأمور ثم واصل ٠

عندما سألته لم يهمس بكلمة وبدا الاضطراب واضحا على ملامحه فاحضرت المصحف وطلبت منه أن يحلف ولكن سرعان ما انهار واعترف بالحقيقة وقال فى خوف :

ـ الأبلة ليلى لم تطلب اشياء محدده ولكنها طلبت التفاهم ٠

بالطبع لم أترك الأمور عند هذا الحد ولكن قلت له :

ـ انت فلاح ورجل مسن ومؤمن بالله وتعرف عقوبة الكذب وخصوصا اذا حلفت على المصحف ٠

أجاب الرجل والدموع فى عينيه وكأنما شعر بالندم على ما اقترف من جرم ٠

ـ انا يا سعادة البيه رجل كبير وابنى الوحيد كان ينفق على ويرعى مصالحى ٠ وحاليا مجند وقدمت طلب مساعدة طرف سمعان بيه ولما تاخر الطلب افهمنى غريب بالوحدة ان الاخصائية ممكن تساعدنى لو تفاهمت معها ٠

وسألته عن معنى التفاهم فشرح لى بأن الست مقيمة فى الاستراحة لوحدها ومحتاجه طلبات ضرورية مثل الجبن والبيض والتمر ٠ وأنت سيد العارفين ٠

كاد ان يغمى على وأنا اسمع هذا الكلام وقلت للمدير :

ـ يعلم الله أنى ألبى كل طلباتهم بدافع من ضميرى وحرصى على مصالحهم لدرجة أن الطلب الذى أشك فيه أقوم بفحصه بنفسى لو كلفنى ذلك زيارة المستفيد فى بيته ٠

قال المدير مطمئنا :

ـ أعلم ذلك ولكن هنا فى الريف يختلف الوضع عن المدينة فكل صغيرة وكبيرة لا تخفى عن العيون وأنا أعرف

قيمة مجهودك لكن دعينى أواصل الحديث حول هذا الموضوع ٠

وسألته ان كان ضميره يسمح له بالاساءة لست ضعيفة وضيفة فى البلد ثم انها فى منزلة ابنته ٠

اقترب منى وقال وهو يهم بتقبيل يدى ٠

ـ آسف يابيه ٠ اغفرلى ٠ أنا مستعد أتأسف لها بنفسى ٠

هدأت نفسى وتسربت الطمأنينة الى اغوارها وقبل ان انصرف سألت المدير :

ـ ليس من حقى المطالبة برد شرف ؟ !

ـ لا داعى لاثارة الموضوع وعودى لعملك وكونى طبيعية واذا صادفتك متاعب أخرى اتصلى بى فورا وسوف تجدين مثل هذه المشاكل دائما بل وأكثر منها تعقيدا ولاشىء سوى الصبر وتحمل المسئولية ٠

ولقد اكتفيت هذه المرة بخصم عشرة أيام من راتبه الضعيف وانذرته بالفصل اذا صدرت منه أية مخالفات اخرى ٠

(٢٧)

المســـرح المهجــور

قبل نهاية وقت العمل قال لى المهندس أحمد بابتسامة عريضة ٠

رئيس المجلس القروى يرغب فى الحديث معك فى أمر هام ٠ انتابنى الخوف وتوقعت انه ربما يرغب فى معرفة رأيى فى اختيـــار احمد كشريك لحياتى ٠ وفكـــرت فى الاعتذار لأننى لم اتخذ قرارى الاخير بعد لكن ربما يتهمنى بالضعف ثم انه شخصية نبيلة ولا ينبغى الهرب منه ٠

وفى مكتبه الذى لا تزيد مساحته عن نصـــف مكتب رئيس الوحدة الاجتماعية رغم انه لا يشغله بمفرده بـــل ازدحم بموظفى المجلس ٠

قال بعدما طلب لى مشروبا ٠

وردت لنا رسالة من المسرح المتنقل بالقاهرة تفيد بأن

فرقة النهار المسرحية وهى احدى فرق المسرح الحديث أبدت استعدادها فى تقديم عروض مسرحية فى القـــرى التى تمتلك متطلبات العرض وستعرض بعض المسرحيات الهادفة منها ٠٠ ياسين وبهية ، الفلاح الفصيح ، تغريبة الهلالية ٠٠ ومطلوب الرد خلال أسبوع من تاريخ ورود الرسالة شعرت بالارتياح فقد زال معظم القلق الذى كان يملأ نفسى وقبل ان أجيب قال أحمد :

لا يوجد لدينا الآن سوى قاعة المسرح الكائن فى الدور الثانى لمبنى الوحدة الاجتماعية وهو مغلق حاليا لأن رئيس الوحدة ٠ سمعان بيه ٠ استغله مخزنا للكهن ٠

أضاف أحد الموظفين بحزن ٠

كان لقريتنا فى يوم ما مسرحا ٠ كنا نعرض عليـــه المسرحيات الهادفة ويحضرها العشرات من الفلاحين الذين كانوا يتجمعون فى هذا الفناء الواسع ولا يغادرونه الا بعد نهاية العرض وكان يشارك عشاق المسرح الذين ماتت لديهم الرغبة فى العمل وجفت فى نفوسهم أزهار الفـــن وتفرقوا كل فى مكان وذلك منذ قـــدوم رئيس الوحـــدة الاجتماعية منه لله ٠

سأل بانفعال وحماس :

ـ لماذا يظل المسرح مغلقا ولا نفعل شيئا ؟

عقب موظف آخر بسخرية وقال :

ـ هذه رغبة سمعان بيه · كلما استهواه الجديد يلقى بالقديم فى المخزن علما بأن ما حفظ فيه من أثاث صالح للاستعمال ومن الممكن أن تظل ما به من مقاعد ومناضد وأسرة وفرش صالحة للاستعمال لسنوات طويلة ·

صحت بدهشة ·

اذا كان لايوجد بنود لتشغيل المشغل وفتح فصل لمحو الأمية والنادى النسائى فمن أين يأتى بثمن الاثاث الجديد باستمرار ؟ !

قال موظف ثالث بضيق :

ـ لديــه أكثر من مورد رزق بالوحــدة وفى دائرتهــا على سبيل المثال · مشروع تسمين العجول بالاضافة الى اعانة الحكومة ·

قلت موجهة كلامى لرئيس المجلس :

ـ لماذا لا نحاول اقناعه ببيع محتويات المخــــزن فى المزاد ثم يعاد استغلاله من جديد · فالقريـــــة فى أمس الحاجة للمسرح لأنه منبر الاصلاح بها وعن طريقه يمكن نشر الأفكار والقيم والسلوكيات ذات الأهداف النبيلة وعن طريقه يمكن أيضا بث الوعى فى نفوس الفلاحين بكـــل

ما يدور فى نفوس الفلاحين حتى تصبح القرية على صلة وثيقة بالمدينة وتواكب التطور ٠

أجاب الرئيس بأسى :

ــ مع الأسف من الصعب التفاهم معه في شيء أو فى أمر يعود على الفلاحين بالمنفعة واذا حاولنا يحاول هو اقناعنا باننا ضيوف فى داره ومن حقه اتخاذ اى اجراء معنا حتى لو وصل لطردنا ٠ وكم من مرة حذرنـــا من مساوىء التدخل فى شئونه الخاصة او فى امـــور تخص الوحدة الاجتماعية ٠

اضاف موظف رابع :

ــ لا تتعبى نفسك فلن نتمكن من فعل أى شيء ٠ الا اذا زال هذا الكابوس الكاتم على أنفاسنا سنوات طويلة ٠

قطع الحديث أحمد وقال :

ــ يا حبذا لو اعيد مجد هذا المسرح من شـــان على يديك فلا شك أننا سنتمكن من عرض المسرحيات التى ترفه عن الأهالى فالشباب يعانى من فراغ لايجد ماوى له حاليا سوى المقاهى والجلوس على المصاطب ٠ وهناك البعض على قدر كبير من الثقافة والوعى ٠ فى قريتنا والقـــرى المجاورة فمنهم من يكتب للمسرح وآخر لديه الاستعداد التام للاخراج لكن تعوقه عدم توفر الامكانيات ٠

صمت احمد قليلا ثم واصل الحديث وهو يبتسم :

ـ كما أنه فى امكاننا أن نقيم فى صـالة العـرض الافراح والحفلات ويستغل الأجر لتطوير المسرح بالقرية ولصالح المشروعات الخيرية فيما بعد ٠

ابتسم رئيس المجلس وأضاف موجها كلامه لأحمد :

ـ يبدو أنك ترغب فى اقامة فرحك أولا ٠

ارتسم السرور على وجه المهندس ورد فى قلق :

ـ بالطبع اتمنى لو يحدث هذا الآن ٠

سأله الرئيس بخبث وهو ينظر لى ٠

ـ هل وجدت العروس ؟

القى احمد نظرة فاحصة على ثم ابتسم فى صـمت وقال :

ـ بالطبع وأتمنى لو توافق وأنا أقيم المفرح من الغد ٠

وقفت حائرة لم أهمس بكلمة فكم اتمنى ان يأتى هذا اليوم واشارك أحمد حياته بحلوها ومرهالولاتدخلالظروف الأخيرة التى ظللت حياتنا باللون الرمادى وحجبت عنى رؤيته بوضوح ٠ .

قطع الحديث أحد الفلاحين الذى كان بانتظار قضاء بعض طلباته بالمجلس وقال :

ـ المسرح كان زمان • صندوق الدنيـــا الذى كان يدور فى الموالد ونشاهد فيه قصة عزيزة ويونس والاراجوز وخيال الظل والسامر الذى كان يعقد على المصاطب ويستمر حتى مطلع الفجر • اشياء واشياء كانت تتفق مع مزاج الفلاح وميوله لكن التليفزيون الآن اضاع كل شىء جميل وتلاشت الأشياء الحلوة والمفيدة ومع الأسف برامجه قــد تتعارض مع ميولنا ورغباتنا فكل مدة طويلة نشاهد برنامجا ربما يقترب من ميولنا ومضطرون أن نشاهده لعدم وجود بديــل •

أجبته مؤيدة •

أنت على صواب لكن كيف تفكر فى اعادة مجد المسرح القروى ونختار ما يتفق مع ميولنا ورغبات الفلاح والمفروض أن يوجه بالأسلوب الذى يجعلهم يشاركون بأفكارهــــم ووجدانهم وتمس موضوعاته مشاكلهم وآلامهم •

قال رئيس المجلس :

ـ نفكر أولا فى كيفية فتح المسرح حتى نتمكن من الرد على الرسالة •

أجبته على الفور وبحماس :

ـ يوجد بالدور الأرضى للمبنى حجرة خاصة بجمالات وهى واحدة من المهاجرات • سافرت حاليا للسويس منذ مدة طويلة وهى بلدها التى نزحت منها أثناء الحرب الى

هنا ويبدو أنها عقدت العزم على البقاء فى مسقط رأسها اطول وقت ممكن ولذلك أخذت معظم اثاثها ولم يتبـــق سوى القليل ومن الممكن نقل محتويات المسرح بصفة مؤقتة واعداده لاستقبال الفرقة ٠

عقب أحمد قائلا :

ــ مفاتيح المخزن مع سمعان بيه ولقد تغيب منذ أيام ولا أحد يعلم عنه شيئا ٠

اجبته بقلق :

ــ نعم ٠ لقد أرسلت ساعيه الخصوصى للسؤال عنه فى عزبته ولكن لم يرد حتى الآن رغم مضى ثلاثة أيام ٠

قال عم سيد عامل الوحدة والذى عاد من اجازته القصيرة منذ ساعات قليلة ٠

ــ سمعان بيه يا ست ليلى محجوز فى مستشفى عين شمس التخصصى منذ ان غاب عن الوحدة ٠

ــ خير ٠ ماذا حدث ؟

اصيب بأزمة قلبية حادة وهو حاليا فى غرفة الانعاش ولا أحد يستطيع الحديث معه ٠

انتابنى الأسى وقلت لهم جميعا :

ـ الواجب يحتم علينا زيارته · نختار من يمثلنا من المجلس والوحدة مع مراعاة تقديم هدية رمزية ·

قال موظف بغضب :

ـ لا ـ لا يستحق كل هذا وكفى ما فعله بنا ·

أضاف فلاح مسن بضيق :

ـ يا ليته يتوكل على الله ويفارقنا حتى يروق الجو ويحلو وتحل كل المشاكل للفلاحين الفقراء من امثالنا ·

قلت له بانفعال :

ـ فال الله ولا فالك · المفروض نطلب له الشفاء حتى يعود بالسلامة ونفتح باب المناقشة معه مرة ثانية حول كيفية اعادة مجد المسرح القروى لأنى اعتقد أنه طيب القلب ولكن المرض سبب له ازمة نفسية ·

اقتنع بعض الموظفين بكلامى وهم قلة وابدوا استعدادهم فى المشاركة فى شراء الهدية واختيار من يقوم بتقديمها وقالوا وهم يجمعون النقود ويسلمونها للمهندس أحمد :

ـ نعمل الطيب ونلقى به فى البحُر ·

تذكرت بعض المستفيدين الذين ما زالوا فى انتظار طلباتهم أمام مكتبى واستأذنت فى الانصراف · استوقفنى رئيس المجلس وقال ·:

ـ فكرى قبل ان تتركينا كيف نرد على رسالة المسرح المتنقل · ففرقة النهار المسرحية مجموعة من الهواة ومن الشباب المتحمس ولديهم الاستعداد للعطاء الى ما لانهاية وفرصة نستغل مواهبهم فيما يعود على القرية بالفائدة ·

أجبته وأنا أشير الى فناء الوحدة ·

ـ ما رأيكم فى استغلاله مع بعض التعديلات فلدينا المناضد والدكك ومن الممكن تأجير خيمة والكهرباء والحمد لله دخلت القرية واذا كانت الاضاءة ضعيفة ندعمها ببعض الكلوبات ·

عقب الفلاح العجوز بسخرية وقال :

ـ ربنا يستر لأن التيار دائما يخدعنا وينقطع وقد يحدث اثناء العرض ·

أجبته بثقة :

ـ نأخذ فى الاعتبار توفير بعض الكلوبات · ثم ان هذا مجرد اقتراح واذا اقتنعتم ففكروا فى عمل الدعاية من الآن ·

واصل احمد وقال :

ـ نعلق لافتات فى المبنى وعلى الأسوار الخارجية ونطلب من شيخ الزاوية الاعلان فى الميكرفون لكننى أخشى ان يرفض ويشترط تقديم عروضا للدراويش :

ضحك الجميع بينما قال رئيس المجلس •

ـ هذا هو عين الصواب واعتقد ان الكل موافق على رأى الأستاذة •

هز الموظفون رؤوسهم علامة الموافقة وقال البعض على الفور •

ـ بالطبع لأننا فى أمس الحاجة للترفيه وكفانا حرمان • فالقرية لا يوجد بها حتى نادى شباب أو بيت ثقافة •

سألنى الرئيس وأنا أعود للمكتب •

ـ هل ستشاركين الوفد الذى سيزور المريض •

ـ آسفة لأننى مشحونة بالعمل مع المستفيدين الذين مازالوا ينتظرون بالعشرات رغم انتهاء وقت العمل فسيادتك تعلم أنه لايوجد سواى بالوحدة والسكرتير لا يحضر سوى مرة كل أسبوع رغم اننى كنت اتمنى القيام بهذا الواجب •

اقترب منى الرئيس وقال هامسا :

ـ آه لو تعلمين ماذا حدث لك لالقيت بكل شىء فى قاع الترعة واحتقرت هذا الرجل الذى شاء القدر ان يكون رئيسك ارتعدت مفاصلى من الخوف وسألته على الفور :

ـ ماذا حدث ؟ أرجوك تكلم · لقد شغلتنى كثيرا ·

قال هامسا بينما احمد يقف خلفه دون علمه :

ـ اثناء زيارتى للادارة الاجتماعية صباح الأمس للقاء المدير بخصوص التعاون فى مشروعات المجلس بلغنى عن طريق غير مباشر خبر هام يخصك ·

لاحقته بسرعة قائلة وأنا اقترب منه أكثر :

ـ ما هو ؟

صمت بعض الوقت ثم قال بحزن :

ـ صدر قرار وزارى بنقلك الى محافظة الفيوم وأعتقد ان سمعان بيه هو الفاعل الأصلى ·

ما كاد الرئيس ينهى كلامه حتى شعرت بالأسى وامتلك اليأس نفسى وكأنما دوار قد مسنى ولكننى تماسكت اعصابى وجمعت ما بقى لى من شجاعة وأجبته على الفور :

ـ لقد طلبت ذلك بالفعل ·

غادرت المكان على الفور عائدة إلى مكتبى وقد سرت فى جسدى رعشة من الاحباط بينما أحمد سار بخطوات سريعة نحو الطريق الزراعى وقد نكس رأسه الى اسفل وتغير لون بشرته · لحظتها تأكدت ان الخبر المؤلم هذا قد تسرب الى سمعه ·

(٢٨)

حزمــة برسـيم

في صباح اليوم حملــت بعض الأوراق الـ
بالمستفيدين والتى فى حاجة ماسة لاستكمال بيانات
للجمعية الزراعية لمعرفة ما اذا كان هؤلاء يمتلكون
زراعية أم معدمين • قررت أن أفعل ذلك بنفسى لأ
أن أرسلت للاستفسار عن طريق البريد فكان الر
فى وقت متأخر واذا ورد للوحدة بعضها فــلا
وجود خطأ ما أن يكون ختم الجمعية مشوه الملا
يبدو للرائى حلقة مفرغه واما ان يكون بدون ذ
الرئيس •

وبينما اخطو نحو الباب الخارجى اذا بى وج
بأم حسن وهى واحدة من المهاجرات المقيمات فى
الوحدة الاجتماعية • كانت عائدة من أرض المنحل

بالخضروات وقد جمعت بعض الفجل والجرجير · عندما لمحتنى حاولت أن تخفى ما بيدها خلف ظهرها وقد غرقت فى بحيرة من الخوف والخجل ·

قلت لها لاخفف من معاناتها ·

ان ما فعلتيه هو عين الصواب فكل ما زرع فى أرض الوحدة من حق سكانها ·

أجابت بصوت ضعيف :

ـ عودان من الخضرة للاولاد ·

حاولت أن أغير الموضوع لاخفى خجلها ·

ـ ممكن تدلينى على أسهل طريق يوصلنى للجمعية الزراعية ·

قالت وهى تشير الى المجلس المحلى :

ـ طريق القطار هو الحل الوحيد · والمهندس احمد النبى يحرسه وأقف هناك ويعرف السكة ·

عندما لمحنى تقدم بخطوات سريعة نحونا · شعرت لحظتها بخوف وانتشاء ·

قال بعدما ألقى تحية الصباح :

ـ أنا فى طريقى لمجلس المدينة واتمنى لو تطلبين شيئا من الادارة الاجتماعية ·

لاحقته أم حسن قائلة وهى تربت على كتفه ٠

ــ الأبلة ليلى فى طريقها للجمعية الزراعية وربنـــا يسترها معك توصلها ٠

انتابنى القلق وهمست :

ــ اذا اصطحبنى ساصبح موضع الشبهات ولا داعى للاساءة لسمعتى ٠

وقفت صامته بعض الوقت حائرة ٠

اخرجتنى السيدة من شرودى وقالت :

ــ أحمد طيب وابن حلال وراجل فى المواقف الصعبة اذهبى معه وتوكلى على الله ٠

لم اجد الا ان اسير الى جواره حتى محطة (التايوتة) ساد بيننا صمت غريب تخلله بعض أصوات الحيوانات الذاهبة الى الغيط بصحبة الفلاحين ٠

نظر لنا احدهم مشفقا ٠

الطريق معطل (والتايوتة) لن تمر الآن يمكن بعد ساعات ٠ ويوجد حادث على الطريق ٠

نظر لى أحمد بدهشة وقال :

ــ فى امكاننا نعبر الكوبرى للبر الثـــانى ونأخــذ القشاش ٠

القشاش • بالتأكيد لن نصل حتى بعد انتهاء وقـــت العمل •

اعتقد قبل ذلك • ممكن ســـاعة او ســـاعتين على الأكثر •

كان علينا ان نمشى فى طرقات متعرجة مارين بتلال من السباخ وبعض البرك التى انتشرت فى حضن الأرض الزراعية والقنايات • واحيانا كانت اقدامنا تغـــرس فى الطين ونهرس بعض النباتات الخضراء الصـــغيرة التى تتطلع للحياة فى زهو • قال المهندس فى همس ونحن نعبر تلك الممرات الشائكة •

أنا فى حاجة ماسة لانسانة تفهمنى وتكون على قـــدر من التعليم والوعى •

شردت قليلا وانا اتجه ببصرى نحو الطريق الزراعى حيث محطة القطار الذى كان على بعد امتار قليلة •

اجبته وانا احاول الهروب :

ـ صبية مليحة تلك التى كانت تقف بجوارك وتهمس لك صباح امس الاول أمام المجلس •

أجاب بضيق وهو يقترب منى :

ـ لقد تعجلت والدتى وخطبت لى ابنة اختها قبـــل وفاتها • وهى تصغرنى بعشر سنوات ورسبت فىالاعدادية

ولا تربطنى بها صـــلة مودة ولا أشعر نحوهــا بشىء من التفاهم أو الحب وذلك من أجل الميراث أو شـــىء من هذا القبيل ٠

قلت له لاغير موضوع الحديث :

ـ يبدو أننا اقتربنا من المحطة ٠

لم يكترث بكلامى وظل يواصل الحديث وقد اقترب منى أكثر وهمس فى أذنى بلطف ٠

كم تمنيت أن تشاركنى حياتى فتاة اشتاق اليها وتربطنا روح واحدة ٠

اجبته بلهجة سريعة وقد اقشعر جسدى من الخوف فلم يكن بجوارنا أو حتى بالقرب منا أحد ٠

خطيبتك كالقمر وفى امكانك التفاهم معهــا وذلك اذا خصصت لها بعض وقتك فى نزهة مثلا ٠

أجاب بيأس

ـ فى الحقيقة التفاهم من أهم اساسيات الحب لكن ليس كل شىء فلابد من شعور خاص ينبع من الأعماق يجعل المحب متلهفا لرؤية نصفهالآخر وقد يتعلق ذلك بالــروح أو الوجدان أو ما شابه ذلك لكن مع الأسف هذا مفقود بيننا ٠

سبحت قليلا فى نهر أفكارى وهمست فى دهشة ٠

ـ لماذا اصبحت اشعر فى الرغبة فى الابتعاد عنـــه وخصوصا عندما علمت بنبأ خطوبته من مصدر خارجى رغم ان قلبى مازال يخفق عندما أراه واشعر أن شيئا هامـــا ينقصنى اذا غاب عنى ٠

تمنيت ان ينتهى الطريق وبمجرد أن اغلـــق عينـى وافتحها أرى القطار وانتهزت فرصه مرور فلاح يســـوق حمارا قد اثقل ظهره بحمل من الطماطم الناضجة والتى لايقل حجم الواحدة عن حجم التفاحة الكبيرة ٠ نظرت لها بشوق وانا اقترب من الحمار ٠ وفى لمح البرق انتقى الفلاح بعضها وقال وهو يناولها لى :

ـ اتفضلى يا ست هانم ٠ يبدو أنك (غريبـــة) عن بلدنا ٠

قال احمد بضيق بعدما انصرف الفلاح وبينما اتذوق واحدة :

ـ الطماطم فى دارنا احسن من الورد ٠ لو اعرف انك مشتاقة لها كنت ملات لك مشنة ٠

ـ اردت فقط ان امزح مع القروى ٠ ناولته بعضها وقلت له ٠٠

ـ سلى طريقك ٠

ـ اعتقد ان سلوكك هذا بغرض الهروب من الحديث

لزمت الصمت · سرنا وكأننا غرباء حتى اقتربنا من محطة القطار التى بدت مهجـــورة الا من بعض الفلاحين الذين انتظروا بجوار القفف والزكائب التى امتلات بالخضار الطازج والفاكهة · فجأة انطلقت صفارة القطار الكسول التى ايقظتنا من شرودنا · وفى لمح البرق جذبنى من يدى وهو يقول :

هيا القطار وصل ·

* * *

كانت معظم مقاعد القطار خالية · ظل يسير كثعبـــان اثقلته وجبة دسمة بعد اقتناص فريسة سمينة ومن ثم راح يتأرجح زاحفا بين المزارع والحقول فى زهو وسرور ·

قلت لأحمد فى خوف :

ـ يبدو اننا لن نصل فى وقت العمــــل وقد اتعــرض لمتاعب · ربمـــا اجد الجمعية مغلقة او المدير غير موجود وتتعطل الأبحاث ومصالح الناس ·

اجاب مشفقا :

ـ انك تحملين نفسك اكثر من طاقتك وهذا ليس من اختصاصك والمفروض ان يقوم المستفيد بانهاء كل اجراءات البحث وما عليك الا ان تكتشفى ما اذا كان يستحق المعاش او المساعدة أم لا ·

كلامك فيه كثير من الصواب لكن لم ار مستفيدا حضر ومعه شهادة مستوفاة منذ استلامى العمل • حتى طلب المساعدة اطلبه بنفسى فى معظم الاحيان فالمستفيد اما أن يكون أميا لا يعرف صياغة الطلب • واذا اخطأ احدهم واحضر مستندا أو شهادة تكون غير صالحة فلا يوجد توقيع المسئول مثلا أو الختم غير واضح أو مشوه بحجة فقدانه أو عدم وجود حبر للختامه •

حاول أحمد أن يخرجنى من دوامة العمل وقال :

ـ اطلبى من الله الا يعطل القطار فى هذا الطريق الوعر فلا يوجد هنا من يقوم بالاصلاح اذا تسرب الفساد الى القضبان •

ربنا يستر ونوصل بالسلامة ولو حتى قبل انتهاء وقت العمل بقليل •

توقف القطار فجأة • ساد زعر وضوضاء بين الركاب الذين كان معظمهم من الفلاحين والقلة منهم موظفون اكانوا متجهين لمصالحهم فى المركز •

قال أحدهم فى قرف :

ـ لم يكن فى نيتى التدريس بمدارس الأرياف • لو سمعت كلام خالى وسافرت الى البلاد العربية كان حالى أصبح أفضل • ولا شك ان ناظر المدرسة سيسىء فهمى

عندما اصل فى وقت متاخر ويعاقبنى · لا حل الا ان اقيم فى فصل من فصول الدراسة بالمدرسة اقامة دائمة مع بعض الزملاء المغتربين الذين فضلوا هذا الأسر ولا عذاب كل يوم ·

لاحقته قروية كانت تسند قفة بيدها حتى لا يسقط منها الخضار الطازج الذى ملأها حتى اخرها ·

وقالت فى ضيق :

ــ صحوت منذ الصباح الباكر · الفجر اذن · صليت وملأت القفة بالخضار وخرجت بسرعة لالحق بالسوق فى طلعة النهار لكن السوق الآن شطب وراح تعب النهار · من يرغب فى الخضار البائت · لو أنك يا اباحمزة انتظرت بجوار ارضك ترعاها كان أفضل من سفرك وكنت حمتنى من العذاب وحيرة نفسى على عيالك · منك لله يا بعلى صرخ رجل مسن وهو يخبط كفا بكف وقال :

ــ لا حول ولا قوة الا بالله · لثالث مرة أسافر المركز لمقابلة رئيس المدينة · النور مقطوع فى بلدنا باستمرار الاسم فقط ان القرية دخلها نور واتعمرت لكن الحقيقة مرة ·

قلت لأحمد هامسة :

ــ اعتقد ان مثل هذه الشكاوى من اختصاص مجلس القرية أولا · وفى امكانك التصرف الآن ·

اقترب من الفلاح وهو يبتسم وسأله عن اسمه واسم بلدته وهو يربت على كتفه ويوعده بحل مشكلته ·

قالت قروية موجهة كلامها للرجل المسن :

ـ النور دائما يقطع فى عزبتنا من ساعة المغرب لوقت الفجر حتى التليفزيون أصبح وجوده مثل عدمه · واصل الفلاح المسن حديثه وقال :

ـ المصيبة أنى عاجز عن مقابلته لأنه غير موجود ولا أعرف له مكانا · أحيانا يفيدنى الموظفون بأنه فى اجتماع هام مع المحافظ وأخرى يقولون بأنه سافر مصر لقضاء مصالحه ·

قلت للرجل مطمئنة وأنا أشير الى أحمد ·

المهندس سيبذل المستحيل لحل مشكلتك فى المجلس المحلى أولا ·

انتفض أحمد واقفا وسار نحو مقدمة القطار التى تبعد عن مقاعدنا بخطوات قليلة وقال فى كدر :

ـ سأبحث عن سبب العطل ·

لحق به شاب آخر وغابا عن الانظار ·

انتظر الجميع بفارغ الصبر وكل يتنهد بصعوبة ويضرب كفا بكف ·

بعد قليل عاد احمد ليقول بابتسامة :

ـ اطمئنوا سيتحرك القطار حالا ٠

سألته بشغف ساخرة :

ـ بعد ساعتين من العطلة ٠ لقد أوشك الظهـــر على الأذان ٠ ثم ما سبب هذا ؟

قال الشاب الذى كان بصحبة احمد فى غيظ :

ـ السائق بسلامته كان يجمع أكل الأرانب من الغيط ٠ لقد عاد وهو يحمل حزمة من البرسيم ٠

عقبت فلاحة شابة كانت تحمل طفلها الرضيع ويبدو انه مصاب بالرمد حيث كانت تضع عصابة على عينيه ومن الحين والاخر تقطر له بعض اللبن من ثديها ٠

قالت فى حـــزن :

ـ هذا السائق من بلد اختى وأنا اعرفه ٠ دائما يعطل القطار مرة او مرتين فى المشوار ٠ مرة يحش أكل الارانب واخرى يوصله لداره على الطريق الزراعى ٠

قال الرجل المسن فى اسف :

ـ (اللى اختشوا ماتوا ياولاد) ٠

(٢٩)

الفــــرار

في صباح اليوم حمل لى عم على حقائبى واتجهنا حيث محطة القطار ٠ كان يمشـى بخطوات وئيـدة ٠ ويتحـــدث بصوت خافت لايسمعه ســــوى حفيف الغصــــون وهمس الفراشات للزهور ٠

قال بنبرة حزن :

ـ لولا وجود هذا الغول لما حدثت تلك الكارثة ٠ تقصد من ؟

رئيس الوحدة الاجتماعية ٠ ربنا أوقعه فى شر أعماله ٠

ينبغى الا نيأس من رحمة الله وربما أجـــد فى الأرض الجديدة خيرا ٠ ويجب أن ندعو له بالشفاء ٠

ـ يجعل لك فى كل خطوة سلامة ٠

مازالت صور العشرات من المستفيدين ترقص أما
وتشعرنى بالدوار · فهذا يطلب معونة شتاء وذلك م
عجز وأخرى أرملة ذات اطفال ورابعة مسنة لها مع
وغيرهم · ترى هل سيجدون من يدلهم أو من يمد
الرحمة ؟! هؤلاء الذين قست عليهم الظروف وطحنهم
بآلة القهر الفولاذية أم يبقون هكذا تظللهم سحابةمن الم
ربت العامل على كتفى بينما معالم الوحدة تتلاشى با
وتختفى تحت فروع الاشجار العالية التى كادت تغط
الوكر العتيق لتخفى فى جوفه الحشرات السامة ·

وصلنا المحطة · قلت له بامتنان :

ـ أشكرك على شعورك النبيل وأرجو أن تعود
حتى لا تتعرض للأذى ·

اجاب بابتسامة حزينة :

ـ أطمئنى · حصلت على أجازة وسازور أولاد
الجيزة ·

تسربت الراحة الى نفسى وقلت له :

ـ من النادر وجود مثلك فى هذا الزمن الردىء

اجاب بحنان الأب العطوف :

ـ اعتبرك فى منزلة ابنتى ورغم انه لم يمض

وجودى معك بالوحدة سوى شهور قليلة الا أننى كنت اشعر بالآلام التى كنت تعانين منها ·

اجبته وكلى رغبة فى ان أطبع قبلة حب وتقـــدير على جبهته :

ــ ولذلك كنت تقف بجوارى وتحمل عنى الكثير ·

قال وهو يتجه ببصره الى السماء :

ــ ربنا يعوض صبرك خيرا ·

سألته بيأس :

ــ وهل تعتقد اننى سأجد فى الأرض الجديدة خيرا ؟

أجاب ببسمة أمل :

ــ ثقى فى الله ولا تيأسى من رحمته وما دمت لعمـــل الخير فتأكدى أنه معك ولن يخذلك أبدا ·

اسكتنا صوت القطار بصفيره العالى · اخذت مكانى بجوار عم على بينما اتجهت ببصرى نحو المزارع والحقول لألقى اطلالة سريعة على ملامح القريـــة التى كانت تبتعد بالتدريج ودار بفكرى شريط الذكريات ·

قطع شرودى عم على وقال :

ــ فيم تفكرين يا ست ليلى ؟

أجبته وكأنما ازيح كابوس الامس المؤلم :
شعرت لحظتها بالدوار وتمنيت لو أصبح مجرما ولو

ـ أليس من حقى ان انقل للمدينة حيث عائلتى وكفانى ما عانيت من متاعب كادت ان تؤدى بى الى الهاوية ؟! فلا تتوافر لنا الامكانيات التى تشعرنا بآدميتنا وتحفزنا على العمل باخلاص لرعاية من هم فى أمس الحاجة للخدمة لكن لا فائدة حتى ولو صرخت باعلى صوتى • ستظل القرارات الجوفاء تثقلنا بالقيود •

قال عم على بدهشة :

ـ لقد ذهلت عندما استدعانى الرئيس ظهر أمس وقال وهو يسلمنى السركى •

ـ لقد صدر قرار وزارى بنقل الاخصائية ليلى الى محافظة الفيوم وأرجو أن تسلمها صورة منه وتخبرها بضرورة التنفيذ فى أقرب وقت وليكن صباح الغد • تنهد العامل بصعوبة وواصل الحديث • بالطبع لم أصدق ما قاله :

وسألته على الفور :

ـ ما سبب هذا النقل الفجائى ؟

أجاب بعصبية :

ـ هذه أوامر المسئولين ياغبى •

مرة وحيدة فى حياتى واريح المتعبين من طغيان هذا الغول الذى رغم مرضه الخطير لكنه لا يعرف الرحمة ٠

ــ لا تشغل بالك أنا التى طلبت نقلى ولكن لمحافظـــة القاهرة ٠

كان فى امكانه ان يمنع هذا من أجل مصلحة العمل فالوحدة الاجتماعية التى تخدم اربع قرى وكل منها فى امس الحاجة الى اخصائية مثلك ٠

لا ينبغى الا نظلمه والحمد لله ان القرار صدر فى الوقت المناسب ٠

الشيء الذى يحيرنى أنك لم تتقدمى بمظلمـــة للوزارة احتجاجا على هذا القرار ٠

ــ بالطبع فعلت ٠ ففى صباح اليوم الذى وصل فيـــه الخطاب أى منذ بضعة أيام وكنت قد علمت عن طريق غير مباشر ٠

توجهت لأحد المسئولين بالمديرية وعندما علم ســـبب مجيئى قال ٠

ــ نقلناك لمحافظة جميلة وتم اختيارك رئيسة وحـــدة اجتماعية واعتقد ان الفيوم من المحافظات النموذجية ٠

لحظتها غلى الدم فى عروقى وقلت له بغيظ :

ـ سبق ان قيل لى قبل التحاقى بالعمل فى مركز العياط اننى ساعمل فى وحدة نموذجية وها أنا قد عانيت من مدة اقامتى بالقرية التى قد عملت بها بالاضافة الى عدم شعورى باداء رسالتى كما ينبغى ثم ما قيمة نقلى لمكان آخر مادمت لم اقدم شيئا ذا قيمة ·

كان عم على مازال مشفقا لكلامى وفى شوق لمعرفة ما حدث بالتفصيل وكأنه يبحث عن مخرج لتصحيح ما حدث من خطأ ومن ثم قال :

ـ اكملى يا ست هانم ·

بالطبع لم اكتف بالاحاديث شفويا فقط واخرجت ورقة كنت احتفظ بها فى حقيبتى وسألته ان يقرأ محتواها ·

القى نظرة سريعة وقال بلا مبالاة :

يسند الى الاخصائية ليلى الصاوى الاشراف على مشغل الفتيات والنادى النسائى ومحو الامية وباقى المشروعات الحيوية بالوحدة بالاضافة لعملها ·

التوقيـــع

رئيس المجلس القروى

وبعد ان فرغ من القراءة ناولنى المكتوب وقال باسف :

فى امكانك الاتصال بوكيل الوزارة المسئول لأن الأمر خرج من يدى ·

قلت له بغيظ :

ــ كل ما فعلته بشأن هذه المشروعات يتضمن التوعية فقط وياليتها كانت شاملة ولم أبدا بعد فى تشغيل احداها ٠

ــ لو كنت أملك اعادتك لمواصلة المسيرة لفعلت لكــن القرار صدر من الوزارة رأسا ٠

قطع الحديث عم على وسألنى بلهفة :

ــ هل ذهبت للوزارة وقابلت المسئول ؟

ــ بالطبع لأن صور المستفيدين الذين كانوا يتوافدون على مكتبى معتقدين أننى احضرت قيمة المساعدات ٠

علامات الفقر المرتســـمه على وجوههـــم ٠ الدموع المحبوسة فى عيونهم ٠ الضربات السريعة فى قلوبهم نتيجة للمرض وهم يتنفسون بصعوبة ٠ أقدامهم العارية والمليئة بالقشف نتيجة قطع المسافات الطويلة سيرا على الأقدام

ملابســـهم الرثة كل ذلك بعث فى نفسى الرغبـــة الشديدة فى أن أقدم التماسا لوكيل الوزارة المســـئول ، شرحت فيه وجهه نظرى واصرارى على البقـــاء فى نفس المكان الذى اعمل فيه حاليا ٠

وهل اقتنع الوكيل بكلامك ؟

قال بابتسامة خبيثة :

ـ الفيوم محافظة جميلة وستجدين فيها كل ماترغبين من سكن ومأكل ومعاملة طيبة وستعملين فى اماكن نموذجية ولن تواجهى اية صعوبات أخرى ٠

بالطبع كدت ان اصرخ فى وجهه لأن ما قاله ليس هو المطلوب وقد شرحت وجهة نظرى البعيدة جدا عن المأكل والملبس والمنصب وكدت أن أقول له بأعلى صوتى ٠

ـ ارجوك ٠ لا تقل نموذجية ٠

وعندما شعر المدير بحالة ضيق واننى انفجر من الغيظ قال على الفور مهدئا :

ـ يبدو انك فى حالة قلق ، وربما فى نفسك شىء غامض ٠ هل لديك مشاكل عائلية أو عاطفية ٠ اعتبرينى طبيبك النفسى ومثل والدك واشرحى لى ما يضايقك ٠

وخوفا من زيادة حدة انفعالى وحتى لا اصاب بانهيار فجائى قلت له وأنا اتاهب للانصراف :

ـ اشكرك على شعورك النبيل ازاء مشاكلى التى لا وجود لها ٠ وغادرت المكان وانا اتنفس بعمق ٠

كان عم على يصغى لى باهتمام والدموع فى عينيه ثم قال بأسف :

ـ هذا يعنى ضياع الأمل ٠ منه لله الذى كان السبب ٠

الدنيا بخير والبركة فى الناس المخلصين والطيبين من أمثالك ٠

وقف القطار فى احدى المحطات ٠ صعدت امرأة ترتدى ملابس رثة وكانت تحمل طفلا شبه عار وتجر خلفها آخر قد شوه الغبار ملامحه وكان هو الآخر يرتدى ما يستر عورته فى عز البرد ٠ راحت السيدة تستدر عطف الركاب بمواويلها الحزينة والمؤثرة وتشرح مأساتها حتى يعطف عليها أصحاب القلوب الرحيمة ٠ ناولتها بعض النقود ٠

قال عم على وهو يتجه نحوها ببصره :

ـ يا سلام على قلبك الطيب يا ست ليلى ٠

سادت فترة صمت ٠ سبحت فى الأمس القريب بينما العامل راح يواصل الحديث ٠

الغريب ان هذه المرأة كانت تصرف مساعدة من الوحدة ثم اختفت منذ شهور ولم نستدل لها على طريق ٠

افقت على ما سمعت وسألته على الفور :

ـ هل لها عائل ؟

لقد توفى زوجها الفلاح الأجير بطلق نارى فى احدى الافراح بالقرية وبطريق الخطأ وهى الآن لا حول لها ولاقوة

لم يعد لها عائل يحميها من نكبات الدهر ٠

سألته بدهشة :

ـ أليس لها اقارب بالقرية ؟

ـ يقال انها حضرت الى القرية بصحبة زوجهـــا من الصحراء وربما كانا من قبائل العرب ٠ شرفت قريتنا بهما منذ سنوات واستقرا وانجبا أبناءهما بها وعطف عليهما أهل الخير حتى الدار التى كانوا يعيشون فيها تبرع بها أحد أعيان البلد ٠

حاول البحث عنها تكســـــب ثوابا ومـد لهـا يـد العـون ٠

ـ لا تنسى أن المبالغ التى تصرف من الوحدة قليلـة ولا تكفى حتى قوت طفل رضيع ٠

اتفق معك فى ذلك ولكن شيئا افضل من لا شيء ٠

سألنى ليخرجنى من سحابة الحزن التى احاطت بى :

ـ هل تعلمين ماذا حدث للمهندس ؟

أجبته بلهجة سريعة :

ـ من ٠ أحمد ٠

ذهبت بفكرى للامس القريب وقد سرت رعشة فى كيانى ممزوجة بالخوف والأمل المقهور الذى لـــم يجـد الأرض الخصبة لينمو فى أحضانها ودار شريط من الذكريات٠حديث المهندس عن الفلاحين المظلومين وسـوء معـــاملة الرئيس للمستفيدين ٠ وفاة والديه بعدما تركا له عدة أفدنة ليرعاها وأيضا أكثر من دار فى القرية وعمارة فى المركز ٠

قربه منى ورغبته فى الاقتران • لكننى كنت دائما بعيدة عنه وخصوصا عندما اكتشفت خطبته بقريبته •

ورغم انه كان من الممكن ان يعيش سلطان زمـــانه فى أحضان أرضه المنتظرة سواعده الا أنه لم يستطع التأقلم فى هذا الجو الكئيب • كان يرغب فى التغير السريع ومحاربة الشر الكاتم انفاس المكدورين واعتقد اننى جئت لاشاركه فى كل ذلك لكن الشر كان قد غرس بذرته فى جوف الأرض ونمت وترعرعت بل وأثمرت •

ولكنه لم يقدر على الصمت •

سألنى عم على ليخرجنى من شرودى :

ـ فيم تفكرين يا ست ليلى ؟

سألته بلهفة واشتياق :

ـ ماذا حدث للمهندس ؟ لم أره منذ أسبوع ولم أسمع عنه شيئا • فقد اختفى فى لمـــح البرق • وكأنما ابتلعتـــه الأرض •

أجاب عم على بحزن :

ـ اختفى من يوم الحديث عن المسرح وفرقة الذهـــار والصعوبات التى وجدتها ولم تتمكن من العرض • ويقال انه سافر للخارج حيث يقيم فى أوربا • فلقد شاهده البعض وهو يحمل حقيبة السفر الكبيرة ذات صباح باكر ويتجـه لمحطة القطار •

همست لنفسى فى ضيق :

ـ مسكين · لقد فقد القدرة على المقاومة والاستمرار فى هذا الواقع الردىء وخصوصا بعد ضياع الأمل الذى كان يجده فى شخصى · لكن هل هانت عليه آرضه وداره ؟ ربما كان سيبقى لو مددت له يدى ومنحته بعض الرعاية والحنان لكن كيف لم تمهلنى الاقدار ·

قلت لعم على بخبث ·

ـ ربما تزوج خطيبته وسافر ·

ـ لا يا ست ليلى · لقد حضرت خطيبته بعد اختفائه بأيام وسألت عنه فى المجلس من باب الاطمئنان ·

رحل بدون وداعها ·

ـ لقد أنهى الخطوبة قبل سفره وكانت المسكينة تبكى بحرقة ·

وصل القطار المحطة التى من المفروض ان يهبط فيهـا العامل ويتجه الى بيته لكنه ظل صامتا · حائرا ·

سألته وأنا أربت على كتفه ·

ـ هيا قبل ان يتحرك القطار ·

قال وهو يمسك يدى بحنان الأب :

ـ ارسلى لنا حتى نطمئن عليك ·

ـ بكل تأكيد ولا تنس ان تبلغ سلامى للأولاد ٠

واصل القطار طريقه وسط ضوضاء الشوارع الكبيرة والمزدحمة بالعربات والأتوبيسات وتغطى الجو بسحابات من الغبار المطرود من شرفات المصانع والشركات بينما لم يعد للخضرة مكان ولا للحقول مأوى فى هذا الجو المميت ٠

ألقيت نظرة عميقة على معالم القاهرة بعدما غادرت المحطة ٠ الناس هنا ليسوا احسن حالامن أهل الريف كلاهما يعانى والفرق فى نوع المعاناة ٠ هناك الهدوء والسكن المريح والمتوفر وهنا الزحام والضجيج وأزمة المواصلات والسكن أيضا ٠ هناك الأمية منتشرة والجهل كانتشار النحل فى الحقول وهنا ٠٠ اخرجنى من شرودى وشد انتباهى رجل مسن ٠ كان يعدو وراء الأتوبيس ليلحق به لكن لم يساعده الحظ لأن الباب الخلفى للسيارة كان مكتظا بالركاب لدرجة يصعب معها تمييز الرجال عن النساء ٠ وما هى الا لحظات حتى سقط العجوز تحت عجلة السيارة الخلفية ٠ أصابنى دوار عندما تخيلت أن الرجل قد رحل عن عالمنا وقد تهشم جسمه وتمزق اربا وغطت دماؤه الطريق ٠ اسندت راسى على جدار الرصيف وافقت بعد قليل لأجد بعض المارة قد نقلوا الرجل المسن بالقرب منى وراحوا ينثرون على وجهه بعض العطر وصاح أحدهم وهو يجس النبض :

ـ الحمد لله ٠ ما زال على قيد الحياة ٠

الفهـــــرس

رقم الايداع ١٩٩٣/٩٤٧٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3545 — 3

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

أعجبتني دقة هذا الكتاب وخصوصا في عرض التفاصيل الواقعية الصادقة التي فيه مما يشكل نقدا لاذعا ويتضمن دعوة إصلاحية نحن في أشد الحاجة إليها

نجيب محفوظ

الكتاب القادم

في الحرفية المسرحية

أمين بكير

١٦٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب